الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران
كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير

تخصص: القرآن الكريم و الدراسات الأدبية

أساليب التعبير الإيقاعي في القرآن المكي
دراسة تحليلية أدبية

من إعداد الطالب :
بن شيخ عباس

تحت إشراف الأستاذ الدكتور :
الجيلالي سلطاني

2008/2007

شُكْرٌ و عِرْفَانٌ

بعد الحمد و الثناء على المولى عزَّ وجلَّ الذي منّ و تكرم علينا بإتمام هذا العمل لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر و الامتنان ، و جزيل العرفان، و خالص الدعاء إلى الأستاذ المشرف: الأستاذ الدكتور: الجيلالي سلطاني
أستاذا موجها، و أباً ناصحا، أشكره على توجيهاته وملاحظاته التي كان لها الأثر الإيجابي في البحث، مع تقديري لوساطته العلمية، وما زانها من كريم الأخلاق، ونبل التعامل، وعلو الهمة، وسماحة الأصفياء، وتواضع العلماء.

و الشكر موصول إلى كلِّ أساتذة كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية بجامعة وهران، بالأخص أعضاء لجنة المناقشة، لقبولهم و تحملهم عناء قراءة هذا العمل، فالله أسال أن يتقبل عَملهم و أن يجعل عِلمهم علماً ينتفع به يوم لا ينفع مال و لا بنون.

✍ تلميذكم : عباس

المقدمـة:

إن القرآن الكريم نص أدبي رفيع يحتل الصدارة في الأدب العربي، و يعتلي ذروة النثر الفني، جمع من الثراء اللغوي و التنوع البلاغي و الأساليب التعبيرية المتجددة الرائعة، ما جعله كتاب العربية الأول و معجزتها البيانية الخالدة.

و قد وجه الدارسون أقلامهم إلى هذا المعطى الجمالي يفتشون في جمال أسلوبه وطرق عرضه و استقامة معانيه، فركز القدامى منهم جهودهم حول المعاني فخلفوا لنا ثروة هائلة من التفاسير، اتخذت بعضها طريقة التحليل للتمكن من الجوانب الفنية في القرآن كما هو الشأن عند الزمخشري مثلا، و اتخذ المحدثو نمن تلمس مواطن الجمال و الأدوات الفنية في القرآن الكريم وسيلة لإبراز إعجازه، مستفيدين في ذلك من المعاني الجمَّة التي خلَّفها القدامى، فكان منهم أن جمعوا إلى جانب المعاني الخصائص الفنية الأخرى للنص القرآني.

و من الأبواب الإعجازية أو الجوانب الفنية التي حاول طرقها المحدثون إيقاعية النص القرآني، فكانت لهم معها وقفات جلاَّ ها البعض في كتاب ت خصلة و أفردها البعض ،مبحث من كتاباتهم، فكتبوا عن الإعجاز الفني في القرآن و الصوت اللغوي في القرآن و الإعجاز الموسيقي في القرآن، و لتناثر مباحث هذا الموضوع في كتابات القدامى جاءت أبحاث المحدثين محاولة لالم تلك الأشتات المتناثرة و جمعها، بغية إخراجها في لبوس يفصح عن جهدهم و جهد من يبقهم.

و ما دامت الدراسات المتجهة في هذا المنحى حديثة و يغلب عليها الجانب الذوقي فإنها تحتاج إلى منهج واضح المعالم يوحد المصطلحات و يجمع الإشارات.

و طبيعة التخصص الذي وفقني الله لأكون من ضمن دارسيه تقتضي منا التعامل مع كل كتاب يكون موضوعه القرآن الكريم، سواء في علوم القرآن أو التفسير أو الدراسات الأدبية، و من ذلك كان الإحساس يزداد يوما بعد يوم بضرورة إختيار موضوع يكون مجال دراسة لتحضير مذكرة الماجستير، و في جل ما اطلعت عليه سواء من

الأبحاث أو الكتابات لم أجد إلا مواضيع تقليدية قديمة متجددة كالفاصلة والوقف و السجع و غيرها من مواضيع علوم القرآن، و كان لزاما علينا و التخصص " القرآن و الدراسات الأدبية" ان يكون الموضوع المختار ملامسا للتخصص.

و كان من جملة ما قرأت كتاب سيد قطب في التصوير الفني في القرآن، وشدتني عبارة يقول فيها عن الإيقاع القرآني: " و مع أن هذه الظاهرة واضحة جدّ الوضوح في القرآن، عميقة كل العمق في بنائه الفني، فإن حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري، و لم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية..."، و مما شدني أيضا في كتاب آخر مبحث بعنوان أساليب التعبير الإيقاعي لكن في غير القرآن، و منه بدأت العناية تتَّجه إلى الإيقاع في القرآن.

و كل تلك الدوافع لم تحضرني في زمن اطباتك الموافق التي كنا نتعامل فيها مع القرآن، إذ كنا لا نحفظ القرآن و مع ذلك كنا نطرب لتلك الوقفات المسجوعة، و كنا نحفظها و نعلي بها أصواتنا فطرة دون معرفة دوافع ذلك، لكن بعد تعاملنا بالقواعد الأكاديمية مع القرآن أدركنا السرّ ، إنه الإيقاع القرآني.

و لئن كانت الدراسات النقدية الحديثة تتجه بشكل ملفت للإنتباه إلى النصوص التراثية تحليلا و إبرازا لجمالياتها، و لصوغ نظرية أدبية أو إيجاد مقاييس نقدية يحتكم إليها في فنية النصوص الأدبية، فإن الأولى بكل من رام ذلك أن يتجه إلى القرآن الكريم، الذي ظلّ يعتلي ذروة الإنتاج الأدبي منذ أن أعجز العرب و هم إذّاك أرسخ قدماً في البلاغة و البيان.

إن نظرة خاطفة للمكتبة العربية تجعلك تقف على كم هائل من الأبحاث التي اتجهت صوب المتن القرآني، تتروى من جماله الأدبي و تتقلب في رياضه الفنية، و مع ذلك ظلت قاصرة عن التخصص، إذ كانت دراسات يكتنفها العموم، و مع ذلك فإنها تشي بأن المتن القرآني على ما مضى عليه من الزمن لا يزال يحتفظ بكل خصائصه الأدبية و منها الإيقاع.

و المنطلق الذي بنينا عليه الدراسة هو أن القرآن العظيم بحروفه و ألفاظه و جمله و آياته و سوره و بكل مبانيه و معانيه يمثل ظاهرة فنية جمالية، عجزت العرب عن الإتيان بمثلها، لذلك كان من الآثار الأدبية الخالدة التي حوت من غنى أشكال التعبير و عذب السرد و جمال الإيقاع و بديع النظم و جميل النسج ما جعل القرآن المعجزة الخالدة، ينكشف في كل عصر منه بقدر ما تمكن للعلماء من قواعد اللغة و فنونها ومن أدوات العلم و وسائله، فكان لا بد لكشف موطن جديدة لإعجاز النص القرآني من اعتماد التحليل و بالدرجة الأولى و الوصف لبلوغ المرام.

و خصوصية النص القرآني المحاطة بقدسية المنشأ تقتضي منا أن نتعامل بحيطة وحذر مع نصوصه، لذلك فمن الصعوبات التي تلقيتها في البحث :

- أن نطاق الدراسة فيه كثير من التعامل مع النص القرآني، و هذا ما يستدعي التوقف طويلا قبل الولوج في محيط أي جزء من النص أو الحكم عليه أو تحليله، لأن طبيعة التعامل مع النص القرآني تختلف تماما عن النصوص الأدبية الوضعية التي تغتفر فيها كثير من الزلات، كونها صادرة ممن طبيعته الخطأ، أما القرآن فهو منزه عن الخطأ و النقص فكان لنا بهذا أن نحتاط لما نورده بالاستناد ما أمكن إلى الدراسات السابقة والمصادر.

- موضوع الإيقاع من المواضيع الذوقية لا تكاد تحكمه قواعد موضوعية، حتى أن الذين كتبوا في الإيقاع القرآني إنما كان ذلك عن دربة و طول تعامل مع النص القرآني، و قبل ذلك روح الله التي يقذفها في قلوب عباده، و الباحث المبتدئ تغيب عنه كثير من الفتات و يخونه إحساسه في كثير من الأحايين، فيكون حاصل بحثه تجوالا بين أحاسيس من سبقوه بالدراسة.

- ثم إن موضوع الإيقاع القرآني من المواضيع التي لم يقف عندها كثير من الدارسين إيثارا للسلامة أو انشغالا بالمعاني دون المباني، كما هو الشأن بالنسبة للقدامى، أما المحدثين فقد طرقوا هذا الباب لكن بشيء من الاختصار، فخصصوا له جوانبا من كتبهم و أحيانا فصولا

كاملة، عكس الإيقاع في الأدب الذي خصت له دراسات بكاملها من باب النقد؛ الذي لا يستقيم مع القرآن.

و إن كان لا بد لكل دراسة من مفتاح فإن مفتاح هذه الدراسة هو قوله تعالى: "و لقَدْ يَسَّرنَا القُرْآنَ لِلذّكرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِر ..."، و قوله تعالى: "اللهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الحْدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ و قُلُوبُهُمْ إلى ذِكرِ الله.." ، و قوله تعالى : "..وإذا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَق".

و لهذا بدا لنا بعد تقليب وجوه الموضوع أن نجعله في ثلاث فصول:

خصصنا الفصل الأول للتأثير النفسي لإيقاع القرآن المكي ، و شتمل على أربعة مباحث؛ تناول أولها الإعجاز الأدبي للقرآن الكريم، و قد بينا فيه أهمية القرآن ومكانته الأدبية في عصره و الخصائص البنائية التي تفرد بها، إضافة إلى خصائصه الإيقاعية. أما المبحث الثا ني فكان للقرآن المكي و أسلوبه و موضوعاته، عرفنا فيه المكي من خلال كتب علوم القرآن، و أوجزنا أهم الخصائص الأسلوبية المميزة له، وما عالجه من موضوعات، التفت المبحث الثالث إلى الإيقاع تعريفا و ماهية، فمن التعريف العام المجتث من المعاجم انتقلنا إلى التعريف في مجال الأدب، لنعرج في آخره إلى بعض ا لمصط لحا ت التي ترد في الدراسات المتعلقة بالقرآن من جانب خصائصه الصوتية، لنقف في آخر هذا الفصل على الإعجاز النفسي التأثيري للقرآن، فحاولنا مقاربة حد الإعجاز التأثيري للقرآن من خلال بعض مظاهره، و كيف أن للإيقاع في ذلك نصيبا.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان مظاهر التنوع الإيقاعي في المتن القرآني، و حوى أربعة مباحث، أولها المظهر البسيط للإيقاع القرآني، تناولنا فيه بالدراسة أصوات الحروف و إسهامها في بلورة إيقاعية ا طن ا لقرآني، و التي بتآلفها يكون إيقاع النص محكما، و يزيدها تكرار الأصوات المفردة بروزا إيقاعيا إلى جانب الحركات، وخُ صص المبحث الثاني للمقاطع الصوتية تعريفا و وظيفة إيقاعية و مدى إستخدام الأسلوب القرآني لها، و كان لتوازن التراكيب مبحث عرفنا

من خلاله التوازن و بينا قيمته الإيقاعية و مدى استخدام القرآن لهذا المظهر الإيقاعي، أما المبحث الرابع فـ اذ فتحطى آجلى مظهر من مظاهر الإيقاعية القرآنية؛ ألا و هو الفاصلة، فعرفناها وحددنا وظيفتها الإيقاعية و ارتباطها الوثيق بإيقاع النص.

و افردنا الفصل الثالث بعد ذلك للوظيفة المعنوية التي تضطلع بها الأساليب الإيقاعية، و جعلناه في ثلاثة مباحث، اخترنا آن يكون آولها لثنائية اللفظ و المعنى، آبرزنا فيه مدى تناسب الآلفاظ مع المعاني في القرآن، ثم بينا علاقة الإيقاع بالمعاني والدلالات، و التي جاء المبحث الثاني مبينا بعضاً منها؛ إذ عرضنا فيه إسهام تآلف الحروف في بلورة الايقاع و مناسبة المقاطع لمعاني النصوص في القرآن و الدور المنوط بالفاصلة في آداء المعاني، ليكون ختام هذا الفصل إيضاحا عمليا للأساليب الإيقاعية و أداءها المعنوي.

وختمنا البحث بخاتمة لخَّصنا فيها أهمّ ما توصلنا اليه من نتائج.

المبحث الأول: الإعجاز الأدبي للقرآن الكريم

1- ميلاد المعجزة القرآنية:

القرآن الكريم كتاب هداية و بيان ديني، من أجل الهداية أنزل و في البيان تحدث، فكل ما ورد فيه من آيات و قصص و تشاريع و أحكام إنما هي للُزوم الصراط المستقيم الذي أراده الله نجاةً و فلاحاً وفوزاً بالجنة." قَدْ جَاءَكُم مَّوعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لمِّا فِي الصُّدُور و هُدىً و رَحمَةٌ لِلمُؤمِنِين"[1].

و كما أنه كتاب هداية و بيان ديني؛ هو أيضا تعبير و بيان أدبي معجز. "اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِي"[2]، خطاباً للنفس أنزل و رسالة للعالم كان، و على هذا الأساس جاء لا يعترف بحدود الزمان و لا المكان، خطابا لكل الشعوب ولكل العقول و لكل العصور، فكان عطاؤه للجيل الذي شهد نزوله غير عطائه للجيل الذي بعده، ذلك لأنه كتاب هداية للدنيا كلها.

لقد أخذ الذين تلقوا القرآن أول ما نزل رصيدهم وفق معارفهم و إشراقات نفوسهم، و وجد من أتى بعدهم نصيباً محفوظاً كأنما هم من يتلقون القرآن أول مرة، و نجد نحن نصيبنا مع ما انفتحت به نافذة العلم و المعارف، و كذا تجد الأجيال بعدنا؛ لأن "النصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط و البيئات و الظروف و الأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس و لكل عقل و لكل إدراك، كل بقدر ما يتقبل منها و ما يطيق"[3].

إن عطاء القرآن يتسع لكل عصر، مهما بلغ أهل ذلك العصر من العلم و التدقيق و الكشف، و إعجازه يتجدد مع الزمان و المكان، عكس معجزات الرسل السابقين المحدودة بالزمان و المكان "لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن معجزة هذه الرسالة، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة مفتوحة للأمم كلها و للأجيال كلها... فهاهو ذا بعد أكثر من

---

[1] - سورة يونس، الآية 58.
[2] - سورة الزمر، الآية 23.
[3] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج06، دار الشروق، لبنان، ط13، 1407هـ/1987م، ص 3378.

ثلاثة عشر قرنا كتاب مفتوح و منهج مرسوم...ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته؛ و يبقى رصيده لا ينفد، بل يتجدد"[1]، فكل رسول كانت له معجزة وكتاب؛ فموسى أظهره الله بالعصا و جعل التوراة كتابه و منهاجه، و عيسى أرسله الله بالإنجيل و جعل معجزة الطب الخارق آيته، و ليس فينا من شهد عصا موسى حين ألقاها و هي تبطل سحر كهنة فرعون، و لا منا من راى عيسى و هو يبري ألاكمه و الأبرص و يحي الموتى، "و لئن كانت المعجزات الحسية أسرع تأثيراً، فإن المعجزة العقلية أبقى أثراً، و لهذا اختار الله أن تكون معجزة الإسلام الخالدة هي القرآن الكريم"[2].

على ذلك النسق توالى الرسل على أقوامهم، و لما أذن الله تعالى ببعثة الرسول-صلى الله عليه و سلم-للعالمين برسالة خاتمة كان حتما أن تكون بعثته على سنة الرسل السابقين، كتاب و معجزة، فاختار الله أن تكون " معجزة الرسول هي عين منهجه ليظل المنهج محروسا بالمعجزة و تظل المعجزة في المنهج"[3] كي يشهدها كل جيل و في كل عصر بعد ذلك.

و لما كان بدء نزول الوحي في بيئة صحراوية بسيطة يتعامل أهلها مع الطبيعة المجردة وجهاً لوجهٍ؛ تكاد تكون حياتهم خالية من كل إبداع، عدا ما امتلكوه من وسائل البيان، و اكتسبوه من أساليب العربية، فكان إبداعهم في الشعر، و نبوغهم فيه و تفننهم في استعمال اللغة العربية إلى درجة أن أصبح لهم مجالس سنوية يتباهى فيها المبدعون و النوابغ و فحول الشعراء بما جادوا به و ابتكروه من أساليب الشعر و فنونه، و كان الامتياز لأهل الشعر و الفصاحة و البيان منهم أن تعلق إبداعاتهم على أستار الكعبة بعد أن تكتب بمداد من ذهب.حتى قال شاهدهم؛ و هو عتبة بن أبي سفيان يصف كلام العرب قائلاً: "إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، و أعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام قسيها بكلماتٍ مؤلفاتٍ، إن فسرت بغيرها عطّلت، و إن بدِّلت بسواها من الكلام اسْتصعبت،

---

[1] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج05، ص2585.

[2] - قنعان البسيوني: معجزة القرآن أبدية، مجلة الأصالة، العدد:88/87 ، السنة 09 ،1401هـ-1980م، ص20/19.

[3] - متولي الشعراوي: المختار في تفسير القرآن، ج1، دار الشهاب، باتنة، ص 06.

فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سُمعت، و صعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت"[1]، جاء القرآن يحمل من القيم الفنية الجمالية من فصاحة وبيان فوق ما عرفوا.

لقد جاء القرآن الكريم على شاكلة ما برع فيه القوم، إذ كانوا أهل بلاغة ولسان، و فصاحة وبيان، فهل تكون المعجزة إلا من جنس ما برعوا فيه؟ و هل تكون هذه المعجزة إلا من أصل ما صنعوا منه إبداعهم؟ لغة عربية بحروفها لا يزيد عنها حرف، و أساليبها لا تفرق أساليبهم شيئا، لغة "تميزت عن سائر اللغات بالتميز و الرفعة و السعة التي لا تحد مقياس السماء سواء من حيث اللفظ و فصاحته أو البلاغة و البيان و امتدادها إلى أغوار المعاني و إيقاعها الموسيقي المتميز"[2].

و فعلا جاء القرآن مراعياً تلك الخصائص الفنية في لغة قريش إذ ذاك؛ فكانت آياته عذبة سلسة بلسان عربي مبين. " كِتَبٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءانـاً عَرَبِيـاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُـون"[3].و حيث أن المرء مفطور أبداً على الإعجاب و الانبهار بكل ما هو خارج عن مقدوره، فقد أبدى سادة قريش إعجابهم بفصاحة القرآن، و استيقنوا في أنفسهم أنه ليس من قول البشر، و لا عجب في ذلك؛ فهم أرباب الفصاحة و البيان، يدركون غث الكلام من جزله دونما حاجة لتعلم أكاديمي أو الاحتكام إلى معايير النقد بعد الدراسة و التنقيح، أدركوا ذلك بفطرتهم اللغوية التي فطروا عليها، و لكن لحاجة في نفوسهم جحدوا آيات الله و كذبوا بها و آثروا الكفر على الإيمان، بل فوق ذلك إشعال نار الحرب و العدوان.

الحق أبلج و إن لم يره من على بصره غشاوة، فرمد العين قد يدفعها لانكار ضوء الشمس، كما قد يكون سقم الفم مفسدا للمذاق.هكذا كان إنكارهم لبعثة الرسول بكتاب أبكم فصاحتهم و أخرص لسانهم، وكيف لا يكون هذا و هم أرباب البيان و هو الأمي، و هم السادة و الأشراف وهو من هو في قومه؛ يتيم فقير يرعى الأغنام.

---

[1] - محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الازهرية، مصر،ط1، 1398هـ/1978م، ص 03.

[2] - بوداود، حليمة مدرس: معجزة الحروف، دار الغرب، دط، دتا، ص 109.

[3] - سورة فصلت، الآية 03.

و على الرُّغم من كل العداء و المعاكسة، فقد كان الواحد منهم يتلمس موضعاً يلقي منه السمع؛ ليسمع قراءة شجية تنبعث من بيوتات النبي، يروي بها إحساسه الفطري، و يشبع بها نهمه الفني، أو يعثر على لمزة تكون مطعنا في هذا القرآن المعجز.

و انه ليُروى أن الوليد بن المغيرة كان يتحين الفرص لسماع القرآن، و كانت آياته الباهرة تتدفق إلى أعماقه كما يتدفق الماء العذب من أعالي الجبال، فلم يستطع أن يقاوم جماله القاهر و بيانه الساحر و تأثير أسلوبه البديع و معانيه الشيقة؛ حتى كاد أن يسلم، و لم يمنعه عناده من أن يقول كلمة الحق فيه: "والله إن لقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته، و إِنه ليعلو و لا يُعلى عليه"[1]، و هذا الوصف الدقيق لا يكون إلا من إنسان تشبع بالذوق الفطري السليم لأسرار اللسان العربي، و هو الذي قال: "و الله ما منكم من رجل أعلم بالأشعار مني، و لا أعلم برجزه مني، و لا بقصيده ولا بأشعار الجن ، و الله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا"[2].

لم يكن الوليد بن المغيرة وحده في سماعه للقرآن و عدم مقاومة إظهار الإعجاب به، بل كثير من وجهاء قريش، إذ كانوا يذهبون و يستمعون لقراءة النبي صلى الله عليه و سلم خلسة بالليل[3].

---

[1] - وردت روايات عدة في قول الوليد منها قوله: "و الله ما هو بشعر و لا بسحر و لا بهذي من الجنون و إن قوله لمن كلام الله". ينظر: الطبري،: جامع البيان في تفسير القرآن، مج12، دار المعرفة، لبنان، 1412هـ/1992م، ص98.

[2] - المرجع نفسه، ص98.

[3] - قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، و الأخنس بن شريف بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ،وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا. ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، تحقيق: محمد علي القطب، محمد الدالي بلطة، المكتبة العصرية، بيروت، 1415هـ/1994م، ص233.

و لما أن احتدمت المعركة؛ معركة فن و أدب و لغة في ظاهرها، و اعتقاد و مبدأ في باطنها، عدل القرآن عن أسلوب الاستمالة القلبية إلى أسلوب التحدي والإعجاز، لأن من "عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً في المساجلة و المقارضة بالقصيد و الخطب، ثقة منهم بقوة الطبع و تدفق الشاعرية، و لأن ذلك مذهب من مذاهب مفاخرتهم و عادة من عاداتهم"[1]، فسل سيف البيان من غمده بعبارات قارعة محرجة و لهجة واخزة مرغمة أن يأتوا بمثله، و هم أرباب الفصاحة و البلاغة، فهلا اجتمعوا على نقض هذا القرآن و بالتالي نقض دعوة محمد و القضاء عليها، طبعا؛ ما كان ليفوتهم ذلك، فقد أجمعوا أمرهم و انبرى أهل البيان منهم إلى أن أدركوا عجزهم، فعاودهم التحدي أن يأتوا بعشر سور مفتريات، بل و أقل من ذلك؛ سورة واحدة إن استطاعوا، "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مُفْتَرَيَاتٍ و ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[2]، بل " فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ"[3]؛ و لتكن أقصر سورة يبلغونها.

ما كان للمشركين و هم من بلغ القمة السامقة في فن البيان و ضروب اللسان أن يتوانوا لحظة عن معارضة القرآن أو النيل منه إلا أنهم أمام هذا البيان الساحر و القوة البيانية القاهرة نكسوا على رؤوسهم وولوا مدبرين غير محركين ساكنا لرفع التحدي الصارخ الذي نزل بهم و هل يمكن لمخلوق أن يتحدى خالقه-معاذ الله- لكن قد تصور للإنسان نفسه أنه على شيء، أو أنه على هداية، أو قد تنسيه غشاوة الضلال عجزه و ضعفه و كل نقص فيه، و ذلك ما كان من مشركي قريش إذ أجمعوا أمرهم على دحض القرآن بكل ما ملكت أيمانهم و اتسع له إمكانهم، و مع كل ما مكروا لم تجتمع لهم كلمة و لا اتفق لهم رأي، و تمزقت بهم السبل بين السحر و الإفتراء و الجنون و تعليم البشر[4]، "و هم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لا

---

[1] - بكري شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط4، 1980م، ص 147.

[2] - سورة هود، الآية 13.

[3] - سورة يونس، الآية 38.

[4] - كان ذلك حين اجتمعوا في دار الندوة و قد دنا أول موسم بعد المبعث، و آن وفود القبائل للحج، و إذ تواطأ طواغيت قريش على أن يأخذوا سبل الناس إلى مكة و يصدوهم عن سماع القرآن، كان عليهم أن يتفقوا فيما بينهم على قول واحد في هذا القرآن يلقون به العرب حتى لا يختلفوا فيه و يرد بعضهم قول بعض، و شهدت دار الندوة حيرتهم في وصفهم إياه

يعرف له نظير، و الذي يدخل إلى قلوب الناس، و يهز مشاعرهم،ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له ردا"[1].

إن القرآن الكريم نزل باللغة العربية، و لم يأتي بلغة هي غير العربية، من ألفاظها ألفاظه ومن حروفها حروفه، لكن طريقة نظم هذه الألفاظ، و وجوه تركيبها و نسق حروفها في كلماتها و نسق الكلمات في الجمل، كله جديد في بابه، و هذا سر هز القلوب و الانسجام معها و الاستحواذ على العقول الذي حظي به القرآن، لذلك "فالسامع للقرآن يستشعر رهبةً و جلالاً في النفس لا يستشعرهما من يستمع إلى غيره من ضروب الكلام البشري مهما بلغت درجة مزيته الفنية"[2].

إن الفطرة السليمة التي لم تنكس على رأسها تتقبل كل ما هو فطري و تنسجم معه، و هل لإنسان أن يقاوم فطرته؟ قد يقاومها للحظات أو لساعات أو لأيام لكن أن يقاومها العمر كله فهذا من المستحيلات، و إلا لاستحق أن يكون ملكاً كريما " فِطْرَةَ اللهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"[3]. ومن هذه الفطرة أن جاء القرآن على نهج الفطرة التي تتركب منها نفوس العرب الأقحاح، إذ لا مناص لأي نفس من التنكب عن حقيقته و أثره، و لهذا تواصى الصناديد من فصحاء قريش على عدم سماع القرآن، خوفا من أن يؤثر فيهم فيسلموا، أو يخضعوا لحكمه، بل و أمروا غيرهم بعدم الإصغاء إليه، و قالوا "لاَ تَسمَعُوا لِهَذَا القُرآن وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُون "[4]و مع ذلك ظل سلطان القرآن على نفوسهم قائما.

ذلك وإن شعورهم بالقوة و القدرة للقرآن الكريم على النفس البشرية، جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط و يعتدون على من يتلوه في الأماكن العامة، بل قالوا: الغوا فيه، ومعناها شوشوا عليه؛ لئلا

بالسحر أو الشعر أو الكهانة، و إنهم ليعلمون -كما قال قائلهم- أن العرب بحيث لا يفوتها أن تميز القرآن من قول الشعراء و السحرة و الكهان.ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 198.

[1] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج05، تفسير سورة الشعراء.

[2] - عبو، عبد القادر: نظرية جمالية التلقي،جريدة الأسبوع الأدبي،تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق،العدد: 981، تاريخ: 2005/11/12م،موقع www.Awu-dam.org.

[3] - سورة الروم، الآية 30.

[4] - سورة فصلت، الآية 26.

تتلقى تلك الأنفس ذلك النغم و ذلك الإيقاع صافياً كما أراده الله، محركاً لكمائن النفس موجهاً إياها نحو خالقها، لذلك كان أخشى ما يخشاه صناديد الكفر أن يستمع الناس إلى القرآن فيملك عليهم قلوبهم و يستحوذ على عقولهم.

القرآن الكريم بليغ بكل ما تحمل البلاغة من معاني فهو مطابق لمقتضى الحال كما هو الشأن عند أهل البيان ، حين يقرأه الواحد يحس و كأنه يخاطبه هو بالذات دون غيره، مع أنه أنزل للناس كافة، و هل يقدر على هذا أو هل يكون هذا الكلام إلاّ عن خبير، خبر النفوس وفوارقها و اختلاف أحوالها؟ طبعا لا يكون هذا إلاّ من الله سبحانه، الذي خلق الإنسان و علمه البيان، بل وفوق ذلك يعلم مؤثراته النفسية والخلقية و الذهنية و حتى الفنية الذوقية.

2- إعجاز النظم في القرآن الكريم:

المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف المتداول في لغة العرب إذاك، غير أن كل من تلقت آذانه القرآن حين نزوله إستشعر أن للعبارة القرآنية كياناً خاصاً بنيت عليه تراكيبها ورسم معالم صورة نظمها الفريد، و هذا الكيان الخاص للقرآن الكريم هو طريقة تأليف حروفه وكلماته وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم.

و تأسيسا على ما سبق يمكن إجمال مظاهر إعجاز النظم القرآني فيما خص به القرآن من أسلوب، و المراد بالأسلوب: التعبير اللغوي عن الأفكار، و قوامه عنصران هما: الكلمات و الجمل، أما الكلمات فمن حيث هي كتل صوتية تحمل معان؛ و أما الجمل فمن حيث هي مجموعة كلمات تؤدي معنى و تتبع خصائص الكلمات التي تتركب منها من حيث الصوت (و يمثله الإيقاع في الجملة) و المعنى[1].

[1] - ينظر: علي بوملحم: في الأسلوب الأدبي، مكتبة الهلال، بيروت، دط، دتا، ص 15 و ما بعدها.

و من الخصائص الأسلوبية التي يتميز بها القرآن ما يلي:

الخاصية الأولى: الدلالة العميقة للمفردات و الصياغة المحكمة للعبارات

قد يستعمل البلغاء و الفصحاء كلمات للتعبير في موضع ما، و يتحاشون تكرارها إن اضطروا إلى ذلك، فيلجأون إلى مرادفاتها، مع أن لكل لفظة مقامها و معناها الذي تستقل به، أما اتساع دلالة المفردة القرآنية فمعجز في بابه، تجد اللفظة الواحدة تستخدم في معان عدة و تفي بمقصودها، قال الزركشي: " و قد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة تنصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل، و لا يوجد ذلك في كلام البشر"[1]، و تجد اللفظ الواحد يتسع لمعان كثيرة. يقول سعيد رمضان البوطي، و قد عدَّ هذا النوع من إعجاز الكلمة القرآنية: "وربَّ معنىً لا يستطيع الإنسان أن يعبر عنه إلا ببضع كلماتٍ أو جملٍ يعبر عنه القرآن تعبيراً جميلاً بكلمة واحدةٍ لا أكثر"[2]، لا تسد مسدها كلمة غيرها ولا توحي بنفس المعاني التي توحي بها، إضافة إلى جمال الوقع في السمع و الإتساق الكامل مع المعنى، و هذه الميزات الثلاث للمفردة القرآنية إن سلمت لبعض الكاتبين بعضها؛ فإنها لا تسلم كلها مجتمعة.

و يسلك القرآن لتحقيق دلالات ألفاظه مسالك منها: استعمال المفردات الغريبة، و قد جمع العلماء في ذلك و ألفوا، و اعتماد القوالب الصرفية، و الخروج عن مألوف الإستعمال أحيانا.

و دراسة المفردات القرآنية يقتضينا أن نعرج على الجملة القرآنية لاتصالها اتصالاً مباشراً بدراسة المفردات؛ إذ هي أساس الجملة، و يقر علماء البلاغة أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من

---

[1] - أورد مثلا لذلك ممثلا في كلمة الهدى و بين أن لها سبعة عشر وجها، و هي: البيان، الدين، الإيمان، الداعي، الرسل و الكتب، المعرفة، الرشاد، محمد صلى الله عليه و سلم، القرآن، التوراة، الاسترجاع، الحجة، التوحيد، السنة، الإصلاح، الإلهام، التوبة. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ص 134.

[2] - رمضان البوطي: من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، دط، 1416هـ/1996م، ص 176.

البلاغة الذي وصل بها حد الإعجاز، و من تلك البلاغة أن كل كلمات العبارة تتواشج لتعبر عن المعنى أحسن تعبير.

الخاصية الثانية: التآلف الصوتي

إن أسلوبه يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ، و يقوم في طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم . بيان ذلك أن "جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظما أو نثرا ، وللنظم أعاريض وأوزان محددة معروفة ، و للنثر طرائق من السجع و الإرسال و غيريهما مبينة و معروفة . و القرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه و لا في قصيده ، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله و لا في تسجيعه ، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا و لا ذاك ، و لكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته ، بل يسري في صياغته و تآلف كلماته ، و تجد في تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحنا مطرباً يفرض نفسه على صوت القارئ كيفما قرأ ، إذا كانت قراءته صحيحة"[1] .

و هذه الحقيقة توجد في سائر كتاب الله لا تتخلف في سورة من سوره، و لا في آياته ، و في هذا يقول الرافعي: " و ذلك أمر متحقق بعد في القرآن الكريم: يقرأ الإنسان طائفة من آياته ، فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحس ترافد ما بعدها وتمده ، فلا تزال هذه الصفة في لسانه ، و لو استوعب القرآن كله ،حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها ، أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هي فيه ، أو دفعنها عن ماء هي إليه : و لا يرى ذلك إلا سواء و غاية في الروح و النظم و الصفة الحسية ، و لا يغتمض في هذا إلاّ كاذب على دخله و نية ، و لا يهجن منه إلا أحمق على جهل و غرارة ، و لا يمتري فيه إلاّ عامي أو أعجمي"[2].

الخاصية الثالثة: الجودة و الإحكام

[1] - رمضان البوطي: من روائع القرآن، ص 111.

[2] - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، دط، 1426هـ/2005م، ص 275.

إن سمو التعبير القرآني يتجلى من خلال جريانه على نسق واحد في جمال اللفظ، و عمق المعنى و دقة الصياغة و روعة التعبير ، رغم تعدد الموضوعات من تشريع وقصص و مواعظ و حجاج و وعود و وعيد، و هي حقيقة يدركها فحول علماء العربية و البيان حين يتنقلون من موضوع إلى موضوع أو من باب إلى باب، فهو كما قال الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن: "بديع النظم غريب التأليف متناه في البلاغة و هذا الإبداع لا يختص بموضوع دون آخر و لا يتفاوت من آية إلى أخرى، أي أن نظمه بديع في قصصه و مواعظه، و تبشيره و تخويفه، و وعده و وعيده، كما هو بديع على حد سواء في حكمه و أحكامه، و فيما يشتمل عليه من أخلاق كريمة و سير مأثورة، و فيما يضربه من أمثال، و ما يأتي به من حجج، و لا تفاوت في نظمه بين آياته الطويلة و آياته القصيرة، و لا تفاوت فيه أيضا بين قصصه المكررة، وهو ينتقل بك من معنى إلى معنى فلا تجد فيه ذلك الضعف الذي تجده عند البلغاء عندما ينتقلون من شيء إلى شيء، و من باب إلى باب"[1].

إن القرآن مع تفرق مواضيعه و تعددها لا تجد نظمه إلاّ غاية في الجودة، و روعة في الإحكام.

الخاصية الرابعة: تصريف الخطاب

مع أن القرآن حوى من الحقائق ما أذهل العلماء في كافة الميادين و اختلاف الدرجات، فإنَّ مَنْ لا حَظَّ له في العلم يجد فيه بقدر ما يجد ذلك العالم، فمعانيه مصاغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم و ثقافتهم، و إن ابتعدت أزمنتهم و تفرقت بلدانهم.

فالقرآن إذن" إذا قرأته على العامي أو قرئ عليهم أحسوا جلاله و ذاقوا حلاوته و فهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم و عواطفهم، و كذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاله و ذاقوا حلاوته و فهموا منه أكثر مما يفهم العامة و راوْا أنهم بين يدي

[1]- أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق: أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر، مصر، دط، 1994م، ص 37.

كلام ليس كمثله كلام لا في إشراق ديباجته و لا في امتلائه و ثروته"[1]، فهو يأتي الإنسان من مدخليه؛ العقل و العاطفة.

الخاصية الخامسة: روعة التكرار.

و يعني التكرار في الأسلوب الأدبي: "تناوب الألفاظ و إعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغما موسيقيا "[2]، و البشر حينما يلجأون إلى التكرار إنما ذلك لمحدودية طاقتهم التعبيرية و فقر معاجمهم اللغوية، أما ما يميز القرآن في أسلوبه أنه يستعمل التكرار لا عن محدودية الطاقة أو للفقر المعجمي، و إنما لانطوائه على نكت بلاغية وأسرار إعجازية أرادها الله أن تكون لكتابه، و هذا التكرار في القرآن نجده على ضربين: تكرار الألفاظ و الجمل؛ و تكرار المعاني.

أما تكرار الألفاظ عموما فيأتي على وجه التوكيد، كما أنه ينطوي على نكت بلاغية، كالتهويل ، والإنذار , التجسيم و التصوير، إضافة إلى ما يحققه التكرار اللفظي و الجملي من توازنات صوتية تسهم في إيقاعية النص القرآني.و أما تكرار المعاني في قوالب متعددة من الألفاظ و العبارات و بأساليب مختلفة فحتى يتجلى إعجازه ، و يستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بأسلوبه و من هنا كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ ، و يدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب ، و طريقة التصوير و العرض ، بل لابد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة[3]. يقول محمد الصادق عرجون: "الدارس للقرآن الحكيم يرى أنه انفرد بطريقة بديعة في أداء المعاني لا تجارى، و أسلوب فذ محكم لا يبارى... والقصة الواحدة تتكرر مرات كثيرة بعبارات و أساليب لولا ما فيها من الأسماء و الأشخاص و الأماكن

[1] - الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، لبنان،ط1، 1424هـ/2003م، ص 449.

[2] - ماهر مهدي هلال: جرس الألفاظ و دلالتها في البحث البلاغي و النقدي عند العرب، دار الرشيد بغداد، 1980م، ص 239. نقلا من:ضياء الدين،صفاء محمد: تجليات الإيقاع في تكرار الحرف العربي، موقع: www.balagh.com بتاريخ رمضان1427هـ.

[3] - ينظر: البوطي: من روائع القرآن، ص 117 و ما بعدها.

لظن السامع أنها في كل موضع قصة مستقلة بذاتها لاستقلال أسلوبها و ألفاظها"[1].

و ما يمكن قوله جملة عن القرآن أنه " أعلى درجات البيان من حيث لفظه، ومن حيث نغماته، و من حيث مغازيه، و من حيث الصور البيانية التي تكون في ألفاظه وعباراته، حتى أن كل عبارة تلقي في الفكر و الخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها، و دقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة، و بتآخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى، فوق أن الرنين الموسيقي تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة، و حقائق بينة، و شرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنساني القويم، الهادي إلى الصراط المستقيم"[2].

3- خصائص القرآن الإيقاعية:

إن الذي دفع بالاهتمام، وجعله يتزايد نحو مكونات المتن القرآني العظيم بصفة عامة، ونحو إيقاعيته بصفة خاصة، هو خروج هذه الإيقاعية ـ التي أمدت القرآن بمكانته الخالدة ـ عن منظومة أشعار العرب، وما ألفوه فيها، فكان أن وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة متمثلة في "اتساق القرآن، وائتلاف حركاته وسكناته، ومداته، وغناته، واتصالاته، و سكتاته، ذلك ما يسترعي الأسماع، و يستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو منثور"[3].

فكان بذلك للقرآن خصائصه الإيقاعية التي جعلته مبايناً لكل كلام درجت عليه العرب، و جعلته يسمو و يعلو، و بهذه الميزات كان له الخلود و المكانة، و يمكن إجمال هذه الخصائص فيما يلي:

1- عدم التزامه أعاريض الشعر أو أسجاع النثر و هو ما جعل العرب تفاجأ أول ما سمعته لعدم إلفها مثل أسلوبه و عدم سماعها مثل إيقاعه، إذ " جرى العرب كتابا وشعراء و خطباء على أن يجدوا النغم في

[1] ـ مجمد الصادق عرجون: القرآن الكريم هدايته و إعجازه في أقوال المفسرين، مكتبة الكليات الأزهرية، دط، 1386هـ/1966م، ص 160.
[2] ـ محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى ، دار الفكر العربي، دتا، ص 58.
[3] ـ بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص 185.

فاصلة سجع أو قافية شعر، لكن نظم القرآن و نغمه ينبعث من كلماته و حروفه و أسلوبه، فحروفه متآخية في كلماته، لها موسيقى و نغم تهتز له المشاعر، و تسكن عندها، و تطمئن النفوس، و الكلمات في تآخيها في العبارات تنتج موسيقى و نغما يختص به القرآن وحده، و أن أي كلام مهما يكن علو صاحبه في البيان لا بد أن يكون متخلفا عن القرآن لا يمكن أن يلحق به لأنه كلام الله تعالى و فوق طاقة البشر"[1] فخرج عن منظومة العرب في ابتغاءها الإيقاع في قولها، يقول عبد الله دراز:" ستجد اتساقا و ائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى و الشعر على أنه ليس بأنغام الموسيقى و لا بأوزان الشعر"[2].

2- جمعه بين تكييف الصوت و تكييف الحروف حيث تكون قراءته توقيعية دون الحاجة إلى تلحين فهو يفرض نفسه على القارئ كيفما قرأ إذا كانت قراءته صحيحة[3].

3- من خصائص الإيقاعية القرآنية التجدد: " فهو لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار و لا تمل منه الإعادة و كلما أخذت فيه على وجهه الصحيح رايته عضا طريا و جديدا مونقا"[4]. و لخص الفكرة عبد الله دراز في قوله " انك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتا بيتا، و شطرا شطرا، و تسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها و تذهب مذهبا متقاربا فلا يلبث سمعك أن يمجها و طبعك أن يملها إذا أعيدت و كررت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت في القرآن أبدا في لحن متنوع متجدد"[5]. و قبله قال القاضي عياض في الشفا يومئ إلى هذه الخاصية في القرآن. قال: " و من وجوه إعجازه: كونه آية باقية لا ينعدم ما بقيت الدنيا مع ما تكفل الله بحفظه، و منها أن قارئه لا يمله، و سامعه لا يمجه، بل إلاّ انكبابا على تلاوته، يزيده حلاوة، و ترديده يوجب له محبة، و غيره من

[1] - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، ص 265.
[2] - عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط4، 1397هـ/1977م، ص 102.
[3] - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، ص 211.
[4] - عبد الله دراز: النبأ العظيم ، ص 102.
[5] - المرجع نفسه، ص 102.

الكلام يعادى إذا أعيد، و يمل مع الترديد"[1]، وسر ذلك كله التنويع في الإيقاعات و الانتقال من واحد لآخر في السورة الواحدة.

4- الخلو من الألفاظ الحوشية و الغريبة، فهو لبلاغته ما أتى إلا باللفظ المناسب في مكانه مستقرا، و حين نقر بالبلاغة للقرآن الكريم فإنما نقر بذلك بالتلاؤم الذي هو ضد التنافر، يقول الرماني: " التلاؤم نقيض التنافر، و التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، و التأليف متنافر، و متلائم في الطبقة الوسطى، و متلائم في الطبقة العليا...و التلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، و ذلك يظهر بسهولته في اللسان، و حسنه في الأسماع، و تقبله في الطباع..."[2]و طبقة التلاؤم العليا لا تكون إلا للقرآن الكريم فهو فوق تلاؤم ألفاظه و جمله و آياته ينسجم في النغم وجرس القول و موسيقاه، فلا الحرف ينشز عن باقي الحروف بموسيقاه، و لا النغم يشذ عن العرض "فإن كان إنذارا كان النغم إرعادا، و إن كان تبشيرا كان نسيما، وإن كان عظة كان تنبيها، و إن كان تفكيرا، كان توجيها لافتا عما سواه، وهكذا"[3].

5- لعل أكبر خاصية و أحظاها بتقديم المقام تأثير القرآن بجانبه الصوتي، "وإذا تتبعت أقوال من يسلمون في أيامنا، و قرأت سبب إسلامهم لملاك العجب حين تجد أن الأجوبة المختلفة تجتمع في قول واحد؛ هو أن الذين اسلموا وجدوا للقرآن الكريم تأثيرا في نفوسهم، و أحسوا له جذبا لم يستطيعوا مقاومته"[4]، فالقرآن بجانبه الصوتي كان سببا في إسلام الكثيرين من القدامى و المعاصرين، الذين وصلتنا أخبارهم أو ممن أوردت السير و الآثار أنباء تأثير القرآن فيهم.

6- التوافق التام بين الإيقاع و المعاني فلا تجد في القرآن معنى إلا و قد صور وجاء الأسلوب الباسط له بإيقاع له قدر كبير في تجلية هذه

---

[1] - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1418هـ/1997م، ص123.

[2] - الرماني: النكت في إعجاز القرآن. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط02، 1968م ص 96.

[3] - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، ص 269.

[4] - النبوي عبد الواحد شعلان: الحياة الأدبية في عهد النبوة و الخلافة، دار قباء، القاهرة، 1998م، ص59.

الفكرة و إبرازها. ويقول الجويني في ذلك؛ أن "الألفاظ بحروفها و الجمل بكلماتها توفر من جمال الموسيقى جوا ثريا بالنغم يعاون على التأثير المعنوي و النفسي المراد"[1].

و بهذه الخصائص الإيقاعية التي باين بها كل إنتاج أدبي في عصره، ظل القرآن يعتلي ذروة الأدب الفني، و يظل المعجزة القائمُ تحديها للبشر إلى يوم الدين.

المبحث الثاني: المكي أسلوبه و موضوعاته

1- تعريف القرآن المكي:

الدارسون للقرآن الكريم خصوصا من يعنون بعلوم القرآن، يعرجون على مباحث قد تكون من لوازم الدراسات القرآنية، فيعرفون القرآن و المركب الإضافي (علوم القرآن) و يوردون في ذلك مباحث عدة، ما يعنينا منها في دراستنا هو المكي من حيث حده و خصائصه و موضوعاته و أسلوبه.

و الاتفاق واقع على أن القرآن مكي و مدني، أما الاختلاف ففي حد كل منهما، و المتمعن فيما أصطلح على المكي في تلك الدراسات على كثرتها، لا يكاد يجد لها خروجاً عن إحدى اصطلاحات ثلاث[2]:

- الاصطلاح الأول: باعتبار المكان، وفحواها إن المكي ما نزل بمكة، وإن كان بعد الهجرة.
- الاصطلاح الثاني: راعى فيه مطلقوه المخاطبين، فذكروا أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة.
- الاصطلاح الثالث: اعتبار الزمان فيه ظاهر جلي، إذ يرى أصحابه أن المكي ما نزل قبل الهجرة دونما نظر إلى الأشخاص أو المكان.

وعلى كثرة الدراسات التي خص بها القرآن الكريم، وتعدد الاصطلاحات في شأن المكي، إلا أن الإجماع معقود على الإطلاق

---

[1] - الجويني: جماليات المضمون و الشكل في الإعجاز القرآني، ص123.

[2] - ينظر، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1 ، ص 239-240. الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ص111-112. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، لبنان، 1983م، ص 6 و ما بعدها.

الثالث[1]، فيكون المكي بذلك ما نزل قبل الهجرة، سواءً نزل بمكة أو بضواحيها أو أية جهة أخرى .

إن الرسالة التي جاء بها القرآن اقتضت أن يعرف بالإسلام أولا، ثم أن تبسط تعاليمه و فرائضه، لذلك فإن اعتبار عنصر المكان ضابطا يعتمد عليه في القول بمكية نص أو عدمها، يترك منفذا يمكن الاعتراض عليه، أما ضابط المخاطبين فمثل سابقه لا بمكن التسليم به إلا أن يراعى المكان؛ حيث أن لأهل مكة بيئة و طبيعة تتحكم في أساليب لغتهم و لأهل المدينة كذلك، إذ تقول كتب السير أن أهل مكة كانوا عرباً أقحاحاً تكفيهم الإشارة عن العبارة، و الإيجاز عن الإطناب، أما أهل المدينة فأمشاج من اللهجات يلزمهم البسط في العبارة لحدوث الفهم.

و الحقيقة التي يجب أن نقف عندها هي: أن التعاريف الثلاثة يجمعها رابط واحد و هو الهجرة، فبالهجرة تغير المكان، و بالهجرة تغير المخاطبون، و بالهجرة انطلقت مسيرة جديدة للدعوة، و منه لا بد من إدراك أن "معيار التصنيف يجب أن يستند إلى الواقع من جهة، و إلى النص من جهة أخرى، إلى الواقع من حيث أن حركة النص ارتبطت بحركته، و إلى النص من حيث مضمونه و بنائه"[2]، و هذا يدعونا إلى التفريق بين مرحلتين للوحي: مرحلة الإنذار و مرحلة الرسالة[3].

ولما كانت المرحلة المكية مرحلة تجميع ومرحلة تعريف بالدين الجديد وبسط الأدلة والحجج وإرشاد للإيمان بالله وتوحيده ناسب ذلك أن يكون للخطاب فيها سمات مميزة "أحدث بها انقلابا هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير فهو من ناحية قد جعل

[1] - جل كتب علوم القرآن تورد هذه الحدود في تعريف المكي و المدني و ترجح الإطلاق الثالث على غيره من الإطلاقات. ينظر مباحث المكي و المدني في المؤلفات التالية: الزركشي: البرهان في علوم القرآن،ص 239-240. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص 6 و ما بعدها. الزرقاني: مناهل العرفان، ص 111-112.

[2] - نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط6، ص 77.

[3] - "الإنذار: يرتبط بمصارعة المفاهيم القديمة على مستوى الفكر و الدعوة إلى مفاهيم جديدة...و تحريك الوعي..و الرسالة: تعني بناء إيديولوجية المجتمع الجديد". المرجع نفسه، ص 77.

الجملة المنظمة موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم و موضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد "[1].

2- الخصائص الأسلوبية للقرآن المكي:

إن ما ميز القرآن وشد إليه انتباه العرب أيام نزوله أسلوبه، على الرغم من كونه مسبوكاً ومركباً من الأحرف التي جرت عليها أقلامهم، والله سبحانه قصد ذلك بعد أن هيأ العرب لأن يبلغوا القمة السامقة في البيان، فجاءهم بهذا القرآن المعجز ليكون حقاً معجزة .

و أسلوب القرآن في جملته يختلف كل الاختلاف عن الأسلوب البشري، فهو كما وصفه الباقلاني: "بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة، و هذا الإبداع لا يختص بموضوع دون آخر، و لا يتفاوت من آية إلى أخرى، أي أن نظمه بديع في قصصه و مواعظه، و تبشيره و تخويفه، و وعده و وعيده، كما هو بديع على حد سواء في حكمه و أحكامه، و فيما يشتمل عليه من أخلاق كريمة، و سير مأثورة، وفيما يضربه من أمثال، و ما يأتي به من حجج، و لا تفاوت في نظمه بين آياته الطويلة و آياته القصيرة، و لا تفاوت فيها أيضا بين قصصه المكررة، و هو ينتقل بك من معنى إلى معنى فلا تجد فيه ذلك الضعف الذي تجده عند البلغاء عندما ينتقلون من شيء إلى شيء، و من باب إلى باب"[2].

و المعول عليه في معرفة المكي من القرآن و تمييزه عن المدني طريقان: سماعي وقياسي؛ أما السماعي فما وصل إلينا وقت نزوله بالأسانيد الصحيحة، و أما القياسي فهو الضوابط التي تواضعها العلماء فميزوا بها بين الخطاب المكي و الخطاب المدني، أما فيما يخص المكي فتتلخص هذه الضوابط فيما يلي:

- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية[3].

---

[1] - مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط ، 1402هـ/1981م، ص 192.

[2] - أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 37.

[3] - قال العناني: " و حكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة، و أكثرها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد و التعنيف لهم و الإنكار عليهم بخلاف النصف الأول. و ما

- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.
- كل سورة في أولها حرف التهجي فهي مكية سوى سورة البقرة و آل عمران فهما مدنيتان بالإجماع و في سورة الرعد خلاف.
- كل سورة فيها قصص الأنبياء و الأمم السالفة فهي مكية عدا سورة البقرة.
- كل سورة فيها قصة ادم و إبليس فهي مكية عدا سورة البقرة.
- كل سورة فيها "يَا أَيُّهَا النَّاس" و ليس فيها "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا".
- كل سورة من المفصل[1] فهي مكية.

و لم يقف علماء البيان عند هذه الضوابط، بل تعدوها إلى خصائص أسلوبية للقرآن المكي فوق الأسلوب العام الذي جاء به القرآن، استقوها من خلال تعاملهم مع النصوص المكية فلخصوها في الآتي:

- قصر الآيات و السور و إيجازها، و حرارة تعبيرها، و تجانسها الصوتي البارز، و الذي يظهر للسامع من أول وهلة. و " الخطاب بالآيات المكية لجميع الناس، لأنها تتضمن دعوتهم إلى الإيمان.. و لهذا جاءت فيها عناصر الإعجاز التي تتصل بالجانب الصوتي، أو النظم الموسيقي، شديد الوضوح، سريعة النفاد و التأثير"[2].
- كثرة الفواصل القرآنية و تنوعها بحسب الموضوع أو الصور التي تعرض لها الآيات و كذلك قصر هذه الفواصل و تجددها.
- كثرة القسم و التشبيه و الأمثال، كذا تكرار الجمل و الكلمات، و استعمال أسلوب التوكيد بوجه عام.
- غنى الآيات المكية بالتصوير و التجسيم، و اتسامها " بالنهج العاطفي و الإيقاع الوجداني المتناغم مع قصر الآيات و موسيقيتها"[3].

نزل نمه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم و ضعفهم". الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ص 113.

[1] - هي السِّوَر التي تلي المثَانِي من قِصَار السِّوَر وَأَوَّلُهَا سُورَةُ (ق) إلى سُورَةِ النَّاس .وسُمِّيت بالمُفَصل لكثرة الفُصُول التي بين السور بـ (بسم الله الرحمن الرحيم).

[2] - عدنان زرزور: علوم القرآن و إعجازه و تاريخ توثيقه، دار الأعلام، الأردن،ط1، 1426هـ/2005م، هامش الصفحة 218.

[3] - مصطفى الصاوي الجويني: جمالية المضمون و الشكل في الإعجاز القرآني، ص127.

و مبرراتهم في هذه الخصائص أن الآيات المكية " قد دارت حول الدعوة إلى الوحدانية و الحملة على جميع ألوان الشرك و الوثنية و عبادة الأصنام... فجاء أسلوب هذه الآيات يحمل في الغالب سمات القوة و التصوير، و سرعت الإيقاع وحرارة التعبير"[1].

3- موضوعات القرآن المكي:

وكما صرف القرآن العقلية الجاهلية إلى أسلوبه وألفاظه وتراكيبه التي يسبح العقل معها لحسن بيانه وروعة تعبيره ومتعة إيقاعه، صرفها أيضا إلى مواضيعه التي ما كان لها أن تتفق مع ما ألفوه من موضوعات، لا تربوا أن يكون أقصى مبتغاها عصبية وأدنى هممها غانية[2]، لقد صرفهم إلى أبعد من ذلك فطفق يسبح بهم في عالم الروح مع الملائكة أحيانا وفي الجنة أحايين كثيرة، كما أشار إلى ذلك الأستاذ مالك بن نبي بقوله: " إن رحابة الموضوعات القرآنية و تنوعها لشيء فريد، طبقا لتعبير القرآن " مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"[3]، فهو بيدا حديثه عن ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر و المستقرة في أعماق البحار، إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم، و هو يتقصى ابعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن و الكافر، بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس، و هو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد و نحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، و هو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابع، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة و اعتبارا.."[4].

و مع تعدد الموضوعات التي عالجها القرآن إلا أنه يتفرد في تأليفه أن له موضوعاً واحدا رئيسياً تدور كل آياته وسوره حوله؛ ذلك هو الدعوة إلى توحيد الله والعبودية له، ومن هذا الموضوع الرئيس تتفرع كل الموضوعات الأخرى، وهذا الذي يجعل السورة المكية في نسجها

---

[1] - المرجع السابق، ص 219.

[2] - كانت العرب معروفة بمفاخراتها، حتى أن من هذه الأخيرة ما كان سببا في نشوب الحروب بينها و تحرك العداوات، و معروف عنها كذلك إجادتها الغزل بضربيه، إن شاءت عفت و إن شاءت مجنت، و بين هذا وذاك عرف عنها المدح و النسيب و الوصف و غيرها. ينظر: النبوي عبد الرحمن شعلان: الحياة الأدبية في عصر النبوة و الخلافة، ص 115.

[3] - سورة الأنعام، الآية 38.

[4] - مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 181.

تتباين، وفي إيقاعها تتعدد، فلا تخلص من إيقاع سورة إلا وجدته مغايرا تماماً للسورة الأخرى.

وقارئ القرآن يجد السورة المكية تنماز بعرض موضوعات تكاد لا تفارقها في مجمل الأحيان وإن اختلفت نصيبا من سورة لأخرى، و هي:

- المناقشة و الحجاج و عرض الأدلة على وجود الله تعالى و وحدانيته، و على بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب.
- ذكر قصص الأنبياء و الأمم الخالية، و دعوة الناس إلى الاعتبار بهم.
- تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه و سلم، و دعوته إلى الصبر على الأذى تأسيا بمن سبقوه.

و فيما يلي تفصيل ذلك:

- تقرير أمر العقيدة:

أنزل الله القرآن للتعريف بنفسه، فهو كلامه إلى البشر، ولا شك أن موضوع العقيدة أمر عظيم عليه مدار القرآن الكريم كله، وقد علم الله نفوس البشر؛ فمنها المعرض المكذب، ومنها الشاكُّ المتردد، ومنها المؤمن المسلم، لذلك جاء خطاب الله تعالى لهذه الأصناف الثلاث مختلف على حسب حالها، وفي أساليب متباينة.

و معلوم أن تقرير أصول العقائد الإيمانية بدعوة الخلق إلى توحيد الله و إفراده بالعبادة، إنما هو هدف جاء القرآن بروعة بيانه و تفرد أسلوبه لتحقيقه، مخاطبا تلك الأنفس التي تتنازعها قوتان: قوة تفكير و قوة وجدان، و حاجة كل قوة غير حاجة الأخرى، " أما أحدهما فتنقب عن الحق لمعرفته و عن الخير للعمل به، و أما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة و الم، و البيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين، و يطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية و المتعة الوجدانية"[1]، و القرآن في مخاطبته تعالى عن الشعر و السجع الذين يراعيان الجانب الوجداني على حساب

[1] - صلاح الدين عبد التواب،: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، دار نوبار، القاهرة، ط1، 1995م، ص 180.

العقل و ما يستهويه، و عن كلام الحكماء الذين يخاطبون العقول بالمنطق و الأدلة.

إن الآيات القرآنية لا تعرض قضية التوحيد عرضا فلسفياً ميتافيزيقياً جافاً ميتاً. إنما تعرضها في المجال الحركي المؤثر، الموحي
بالواقعية المشاهدة في الكون ولمسات الفطرة و بديهيات الإدراك، مع جمال العرض و اتساق النظم البديع. فـ"قد أحاط اللفظ القرآني بجميع جلال المعاني في جاذبية انسيابية حلوة، تستجيب لها العاطفة النيرة، و ينشدُّ إليها القلب الصادق، و يتلذذ حلاوتها الوجدان السليم"[1].
و القرآن بأدبياته الفريدة صاغ من تراكيب اللغة تعابير تسلل إلى المشاعر الإنسانية في كل مستوياتها، فينقل الإنسان إلى إدراك أسرار الخلق.

فترى أسلوب الخطاب في عرض الأدلة لأولئك الذين أبت قلوبهم إلاّ اللين؛ تجيئهم العبارات بألفاظ سلسة، وأحرف لينة، وإيقاع هادئ، يقع على أسماعهم هادئا فينزلق من خلالها إلى أنفسهم، فلابدَّ إذن من " ملائمة الألفاظ للمعاني، فإذا كانت هذه فخمة كانت الألفاظ جزله، وإن كانت ناعمة كانت الألفاظ رقيقة كذلك "[2].

أما أولئك المعاندون المكابرون المكذبون فتجيئهم العبارات بوقعها القوي، تهز قلوبهم، وتأتيهم الألفاظ بأحرف ثقيلة، يوحي جرسها بهول ما ارتكبوا وهول ما سيلاقون، ويأتي السياق في موسيقاه رعب وخوف، "موسيقى تتجه إلى أناس ثقلت آذانهم، فلا بد لها أن تتنازل عن النغمات المرهفات و الألحان الرقيقة الناعمة التي يقتضي إدراكها درجة عالية من تنبه الأذن و تيقظ الفكر، أما الأصوات الصاخبة التي

[1] - رءوف شلبي: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي(مناهجها و غاياتها)، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص195.
[2] - إميل يعقوب: المعجم المفصل في علم العروض و القافية و فنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1411هـ/1991م.

يمكن إدراكها بسهولة فهي تهيئ لهذه الآذان الثقيلة انفعالا ممتعا"[1]، و إ ن بدا فيه عكس ذلك.

للقرآن طريقة فريدة في معالجة العقيدة فهو" يحول المعلومات إلى نبض حي وسلوك، ويتخير الأوتار التي يوقع عليها في القلب البشري، ليوقظه إلى حقيقته الألوهية وحقيقة الربوبية، فيتوجه إلى الله بالعبودية الحقة ويستقيم على أمر الله"[2].ومن حكمة الله أن أستودع في النفس البشرية حُبَّ الإيقاع و الاستئناس إليه؛ إذ هناك" أوتار في القلب البشري أعدها الله سبحانه لتتلقى إيقاعات معينة فتهتز، فإذا اهتزت انطلقت تبحث عن الله"[3].

إن الإعجاز الخالد للقرآن الكريم لم يتأت من مخاطبته العقل بما يناسبه فحسب، وإنّما أيضا من مخاطبته العاطفة بما يشبعها في آن واحد، فهو حين يعرض العقيدة على العقل للإقناع يعمل في ذات الوقت على إمتاع العاطفة كي يسهل الإقتناع، لذلك نجد أسلوب العقيدة فيه " يمتاز بالحيوية و الإيقاع و اللمسة المباشرة و الإيحاء بالحقائق الكبيرة، التي لا تتمثل كلها في العبارة، و لكن توحي بها العبارة كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها و طاقاتها و منافذ المعرفة فيها، و لا يخاطب الفكر وحده"[4]، فالدارس مثلا حين يقرأ سورة الشمس تتجلى له عظمة الله في الشمس والقمر في النهار والليل في السماء و الأرض وكلها إيقاعات من إيقاعات الحياة كما تجد نفسه في ضحاها وتلها وجلاها ويغشاها وبناها وطحاها، طرباً وإيقاعاً يأسرها ويبعثها بعيداً حيث مصدر هذا النغم الخالد،الله.

- عرض قصص السابقين:

لقد قدم القرآن نماذج لمعالم الطريق التي خاضها الرسل من قبل مع أقوامهم، زادا روحيا تتبلغ به العصبة المؤمنة حتى يأتيها نصر

[1] - جان ماري بويو: مسائل فلسفة الفن المعاصر تر د.سامي الدروبي دار اليقظة العربية، بيروت، ط2، 1965هـ، ص 65.

[2] - محمد قطب: دراسات قرآنية، دار الشروق، القاهرة-بيروت، ط2، 1400هـ/1980م، ص31.

[3] - محمد قطب: دراسات قرآنية، ص33.

[4] - سيد قطب:خصائص التصور الإسلامي، نقلاً من: في ظلال القرآن في الميزان لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الشهاب الجزائر، ط1، 1406هـ/1986م ص 68.

الله، فكان أن حدد الله معالم تلك الطريق من خلال قصص السابقين، و قد اختار الله لهذه القصص أن تكون في غاية البناء الفني، أسلوبا و تراكيبا و أثرا، و هو العليم سبحانه بمبلغ اثر القول الحسن في النفوس، إذ يقول لموسى : "اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي .اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ"[1]، فشان القول الحسن أن يكون له اثر على النفس.

ومما يتمم أمر العقيدة أن يؤتى بصور السابقين وقصصهم وتفاعلهم مع رسلهم، والقصة وسيلة من وسائل التربية، بها يتم الإعتبار ومنها تستخلص الصور الحقة ويعرف الحق من الضلال، وفي معرض حديث القرآن عن العقيدة وعن الله وملائكته وكتبه، يعرض قصص لأولئك الذين آمنوا ولم يكذبوا، يعرضها في ألفاظ توحي بالطمأنينة التي عاشها أصحابها في ظل الإيمان بالله، فالقارئ لقصة مريم مثلا؛ يشوقه إيقاع السرد بخفة الحروف وإتلافها وتناسقها وانسجام الكلمات والعبارات يقول الله تعالى" يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ"[2]، ويقول أيضا" فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا "[3]، والشواهد في ذلك كثيرة.

وفي المقابل يروعه ويرعبه السياق بإيقاعه الشديد أثناء الحديث عن المكذبين والمتكبرين يقول المولى في شأن قارون" فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ "[4].

والقصة القرآنية كما أن لها وظيفة تربوية لها أيضا وظيفة أدبية فنية " فالوظيفة التعبيرية في الأدب لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات بل تضاف إلى هذه الدلالات مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني وهو جزء أصيل من التعبير الأدبي هذه المؤثرات هي الإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات والصور والظلال ثم طريقة

[1] - سورة طه، الآيات 42-44.
[2] - سورة آل عمران، الآية 43.
[3] - سورة مريم، الآية26.
[4] - سورة القصص، الآية 81.

تناول الموضوع" [1] وهذا ما نلفيه واضح جلي في قصص القرآن التي ترد في معارض شتى بأساليب مختلفة ولكل منها لذتها وجماليتها وإيقاعها الخاص، وعلى ما في القصة القرآنية من مؤثرات جمالية فإنها " بكل حيويتها تلك لا تأتي من أجل المتاع الفني وإن كان المتاع الفني يتحقق بكامله وإنما هي ككل شيء في القرآن تأتي مرتبطة بقضية الألوهية نابعة منها ومؤدية إليها "[2].

القرآن الكريم إذن يعرض القصة مرتبطة بالعقيدة" حركة تجيش في القلب فتحركه بوجدانات شتى، وتبعث فيه إنفعالات حية متدافعة لا تسكن ولا تهدأ ولا تموت... وطاقة تتفجر في محيط النفس كلها فتحرك منها أدق ذراتها فتلمس آثارها في داخل النفس وفي خارجها عملا وسلوكا وأفكاراً و مشاعراً "[3].

و المتأمل في القصة القرآنية على وجازتها أحيانا و اقتضابها أخرى و استرسالها في مواضع معينة يجدها تمتاز بالإحكام و الدقة إن من حيث أسلوبها و كل ما يلحق الأسلوب من كلمات و وتعابير و اختيار للمفردات أو من حيث الخصائص الفنية للقصة، أو من حيث الموضوع و كيفية الإيفاء به، فالقصة القرآنية دائما نجدها "محكمة دقيقة تطرق المسامع بشغف و تنفذ إلى النفس البشرية بسهولة و يسر، وسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل و لا تكد، و يرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير و الثمار"[4].

و القصة القرآنية على ما يميزها من عناصر (الشخصيات، الزمان، المكان، الأحداث) تحافظ على طابعها الإستهوائي، لذلك نجد أن الرنين الصوتي و جرس الألفاظ يناسب مراحل القصص، ففي القصص الأولى التي نزلت في المراحل المبكرة من الدعوة نجد " الرنين الصوتي و الإيقاع الجرسي ابرز من غيره، و كأن هذه الإيقاعات تعبر عن نفسية الرسول، و اندفاعه للدعوة، و تحمسه لها

[1] - سيد قطب: النقد الأدبي أصوله و مناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط6، 1410هـ/1990م، ص34.
[2] - محمد قطب: دراسات قرآنية، ص47.
[3] - المرجع نفسه، ص57.
[4] - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص 283.

مع استمرار أمره"[1]،و يسهم في ذلك عناصر القصة مجتمعة و سياقها.

- مخاطبة الرسول و العصبة المؤمنة:

أول ما طلع القرآن على عرب الجاهلية انبهرت به نفوسهم للأثر الذي لحقها، فامن من امن، و تردد من تردد، و كفر من كفر، و مع تباين تلك الانفعالات، يبقى الرابط الواحد بينها؛ هو ذلك الأثر النفسي الذي ظل قائما على كل أولئك.

و القرآن المكي من محاوره مخاطبة الرسول و العصبة المؤمنة معه، إن بالتسلية والترويح بكلمات مطربة موقعة تثير الوجدان و تشوق للقاء الله، و إن بالتأنيب والتوبيخ أخرى، تجد العاطفة فيها لذتها و ترجعها إلى صوابها، إذ " القرآن قائم على رعاية حال المخاطبين فتارة يشتد و تارة يلين تبعا لما يقتضيه حالهم.."[2].

فالكمال البياني و الإعجاز الإيقاعي نجده في أسلوب مخاطبة المؤمنين فـ" الذين آمنوا بربهم و صدقوا محمدا و أتقوا الله... الهدوء في الكلمات، و السكينة في التعابير و اللذة في القراءة، و الانسياب في التعبير، و الراحة في وقع هذا كله على الأذن"[3].

و يطرد الإيقاع في مخاطبة الرسول و من آمن معه مع كل مطلع يخاطبهم يأيها الذين آمنوا أو يأيها الرسول، بنغمة هامدة توحي بمكانتهم عند الله، كما توحي بجلال ما اعد الله لهم.

إن الطريقة التي نلمسها في مخاطبة الرسول من خلال نصوص القرآن فريدة بألفاظها فريدة بإيقاعها و جرسها و نلفي ذلك في من أول خطاب له "إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .."[4]، أمر في لطف و لين و حسن إيقاع.

---

[1] - عبد الله الجيوسي: التعبير القرآني و الدلالة النفسية، دار الغوثاني ،سوريا،ط2، 1427هـ/2007م، ص490.

[2] - محمد الصادق قمحاوي: شبهات مزعومة حول القرآن و ردها، دار الأنوار، ط1، 1978م، ص 64.

[3] - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص 259.

[4] - سورة العلق، الآية 01.

همز من همز و لمز من لمز في أسلوب القرآن لا لشيء إلا لاختلاف أسلوبه وشكله و مضمونه بين مراحل النزول " كان تركيزه على شخصية الرسول، لإعداده للقيام بمهمة الرسالة في عشيرته و أقاربه و قومه، مع تزويده بمعلومات ضرورية حول الحق الذي يدعوا إليه، و نقد ما كان عليه العرب الجاهليون من ضلال و فساد في التصور و الاعتقاد و السلوك، و دعوتهم إلى منهج الله"[1]، هذا في مضمونه أما في شكله فقد " عرضت هذه المعاني بلغة رفيعة جليلة موجزة مؤثرة، ذات إيقاع شديد وفواصل قصيرة و سريعة، مناسبة للمرحلة الأولى و ظروف الدعوة و مقتضيات الخطاب الأولى في الحوار و الإقناع و التأثير"[2].

المبحث الثالث: الإيقاع تعريفه و ماهيته

تمهيد: لقد مهّدت الطبيعة للعرب قيام الإيقاع في شعرهم و نثرهم بممهدات فطرية كان لها الانعكاس الواضح على لغتهم، فطبيعة الصحراء برتابتها أوحت إلى ساكنيها و هدتهم إلى توقيع لغتهم مستفيدين من الظواهر الكونية المحيطة بهم، فتوالي الليل و النهار و الشمس و القمر و مدار الأيام و الشهور والسنوات؛ كلها نواميس طبيعية توحي بإيقاع الحياة، و قبل ذلك دقات القلب و حركة العينين و حركة الأقدام أثناء السير "فلجسم الإنسان حركات إيقاعية سريعة كحركات التنفس، وحركات إيقاعية بطيئة كتعاقب الجوع و الشبع و النوم و اليقظة، و في الطبيعة إيقاع ثنائي يتعاقب فيه الليل و النهار، و إيقاع رباعي تتعاقب فيه فصول السنة"[3].

و على هذا فإن الإيقاع يتجلى في كل مظاهر الحياة و الكون، و ما دام "الإنسان يشعر بالإيقاع في حركة الكون حوله، فإنه يراه أيضا في الفنون التعبيرية التي إبتدعها، مثل الشعر الذي يتمثل الإيقاع فيه في الحركات اللفظية، والموسيقى التي يتمثل الإيقاع فيها في الحركات

---

[1] - عبد السلام أحمد الراغب: الدراسة الأدبية (النظرية و التطبيق)، دار القلم العربي ، سورية، ط1، 1425هـ/2005م، ص 14.

[2] - المرجع نفسه، ص 14.

[3] - عيد سعد يونس: التصوير الجمالي في القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1427هـ/2005م، ص239.

الصوتية، والرقص الذي يتمثل الإيقاع فيه في الحركات البدنية "[1] وفي غمرة هذا الانتشار للإيقاع في أجزاء الكون يعسر أن نجد له تعريفا يحيط بكنهه، ذلك أنه "من عهد اليونان الذين كانوا أول من اجتهدوا في تحديده لا يزال مصطلح الإيقاع محل نزاع بين الباحثين" [2]

و على الاختلاف القائم يبقى الإجماع معقود على أن مصطلح الإيقاع "ينحدر من اللفظ الإغريقي Ruthmos هذا عند قدامى الإغريق"[3].

و لعله من الجدير بنا قبل الولوج في تلك التعاريف و المفاهيم أن نعرج على الدلالات المعجمية لمصطلح الإيقاع، لعل أن نقف عند نقطة تكون رأس الخيط لاستكناه جوهر الإيقاع و مفهومه.

1- الإيقاع في معناه العام:

لغوياً نجد الإيقاع في معاجمنا العربية يعرف على أنّه مستمد من "إيقاع اللحن والغناء، و هو أن يوقع الألحان و يبينها "[4]و هو أيضا مستمد من "وقع المطر و هو شدة ضربه الأرض إذا وبل" [5].

و في معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب يعرف على أنه "الجريان والتدفق، و المقصود به عامة هو التواتر المتتابع بين حالتي الصوت و الصمت، أو النور و الظلام، أو الحركة و السكون، أو القوة و الضعف، أو الضغط و اللين، أو القصر و الطول، أو الإسراع و الإبطاء، أو التوتر و الاسترخاء"[6]، فالإيقاع إذن يمثل العلاقة بين

---

[1] - مراد عبد الرحمن مبروك: من الصوت إلى النص (نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري)، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2002م، ص68.

[2] - محمود المسعدي: الإيقاع في السجع العربي.محاولة تحليل و تجديد، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1996م، ص 05.

[3] - محمد حرير: البنية الإيقاعية و جماليتها في القرآن، مجلة التراث العربي: تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، العددان: 99-100، السنة الخامسة و العشرون، تشرين الاول2005م/رمضان1426هـ، موقع www.Awu-dam.org.

[4] - ابن منظور: لسان العرب، ج6، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، مادة: وقع.

[5] - المرجع نفسه، مادة: وقع.

[6] - وهبة مجدي ، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص 71.

الجزء و الجزء الآخر، أو بين الجزء و الأجزاء الأخرى، و لعلنا بهذا التعريف إتضح لنا جوهر الإيقاع في أنه التتابع أو التعاقب بين الأجزاء، و هذا في عامة الأشياء سواء في الموسيقى أو الأدب أو الرقص أو غيرها.

وهو بالإضافة إلى هذا "يمثل في جملة من المظاهر، بحيث كان كل شيء يشكل في نفسه، ومع غيره أيضاً إيقاعاً: إذا تكرر على سبيل الانسجام والائتلاف؛ بل إذا تكرر على سبيل التناقض والاختلاف كتعاقب الفصول مثلا"[1].

و يعرفه عمر السلامي على أنه:" إحداث صوت أو جرس خافت أو رفيع"[2]، وهو كذلك عنده "الترديد المتواصل لنظام معين"[3]؛ صوتا كان أو حركة أو مادة.

أمَّا في الموسيقى، فيتمثل في " فصل زمان الصوت بفواصل متناسبة "[4]يحسها السامع بشكل دوري، فيتشكل عنده التوقع للمقطع الآتي، فتحدث عنده بذلك اللذة الفنية، لذلك ارتبط الإيقاع ارتباطا وثيقا بالموسيقى، حتى أنه "ربما كان من السهل دراسة الإيقاع في الموسيقى و كشف هذه القوانين بسهولة فيها، لأنها فن زماني تتضح فيه الصورة الأولى و لا تختلط بشيء"[5]، و هذا ما يجعل دراسة الإيقاع في الأدب بله القرآن تحتاج إلى شيء من التركيز و التمعن؛ لأنه لا يمكن عزل الإيقاع و دراسته بعيداً عن موطنه الأصلي، و من خلال التعاريف التي عرجنا عليها يتضح لنا جليا أن الإيقاع "صفة مشتركة بين الفنون جميعا، تبدو واضحة في الموسيقى والشعر و

---

[1] - عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة ـ تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية ـ د. دار الغرب للنشر والتوزيع. الجزائر - 2003 - ص: 226.

[2] - عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، دط، 1980م، ص215.

[3] - المرجع نفسه. ص217.

[4] - إميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1987م، ص 89.

[5] - عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 1412هـ/1992م، ص 187.

النثـــر الفنـــي و الـــرقص، كمـــا تبـــدو واضـــحة فـــي كـــل الفنـــون المرئية"[1]بدرجات تختلف حسب براعة المبدع.

فلا عجب إذن أن نجد من فلاسفة الإسلام من تحدثوا عن الموسيقى و أثرها، بل وألفوا في قوانينها المؤلفات، فـ"سمى الخليل رحمه الله كتاباً من كتبه في ذلك المعنى: كتاب الإيقاع"[2]، كما تحدث إخوان الصفا عن ماهية الموسيقى و تأثيرها في النفوس في رسائلهم[3]، و الغزالي في إحياء علوم الدين[4]، و التوحيدي في الهوامل و الشوامل، والفارابي في كتاب "الموسيقى الكبير"[5].

و وجه الربط بين الموسيقى و الإيقاع ربما يبدو جليا خصوصا إذا تعلق الأمر بالقرآن؛ لوجهين:

أولا: إجماع النقاد و البلاغيون المحدثون و القدامى على موسيقية اللغة العربية وإيقاعيتها. و هم يعنون بالإيقاع-في النقد- موسيقى اللفظ[6].

ثانيا: لأن مصطلح الإيقاع لا يعثر له على اتفاق؛ فكان أن سمى بعضهم الخصائص العجيبة للصوت القرآني موسيقى و سماها بعض آخر إيقاعا.

2- الإيقاع في الأدب:

إذا ما حاولنا الوقوف بعض الشيء للبحث عن جذور الإيقاع، و محاولة معرفة أصوله في موروثنا النقدي الأدبي العربي، فإنه من غير شك نجد كما هائلا من الدراسات في ذلك، لا تحت مسمى الإيقاع، بل تحت مسميات أخرى، قاربت أو لامست المصطلح من قريب أو بعيد.

---

[1]- وهبة مجدي، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، ص75.

[2] - ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص 477.

[3] - إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء، دار بيروت، لبنان، دط، 1376هـ/1957م، الرسالة الخامسة من القسم الرياضي في الموسيقى، من ص 183 إلى ص 241.

[4] - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج5، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1417هـ/0996م، الباب الثاني و العشرون و ما بعده.

[5] - محمد حرير: البنية الإيقاعية و جماليتها في القرآن.

[6] - إميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية ، ص 89.

و مصطلح الإيقاع نجده يختلط بغيره من العناصر الفنية المكونة للعمل الأدبي، على نحو يجعل الوشيجة الرابطة بين هذه العناصر مجتمعة تعطي للنص جمالية و ذوقا خاصا به، و هذا ما نلفيه في نصوص القرآن، فإلى جانب الإيقاع نجد الصور والظلال وألوان شتى من البديع و الأدوات الأدبية.

إن الإيقاع بالمفهوم النقدي الحديث لا يعدو كونه مصطلحا تعارف عليه أدباء ونقاد العصر الحديث، أما القدامى فكان جلي لأنفسهم خفي في كتاباتهم، ذلك أنهم تذوقوه و أحسوا به، غير أن كل عبر عنه باللفظ الذي راه مناسبا و معبراً عن إحساسه.

و الإيقاع في الأدب يعني"الإفادة من جرس الألفاظ وتناغم العبارات و اتساق البناء لإحداث إحساس مستحب عند القارئ و المستمع"[1]، لأن الأدب لا يعني مجرد رصف الحروف لتشكيل الكلمات، و إنما هو الإفادة من الخصائص الصوتية للحروف، و استكناه طاقات اللغة التعبيرية لإحداث الأثر المبتغى في المتلقي، وتوصيل المعنى إليه بكل وجوهه.

و المتتبع للنصوص الأدبية في تراثنا الحديث و القديم، يجد كما هائلا من التعاريف أو الأوصاف للإيقاع، تتقارب و تبتعد و تتفق و تختلف، خصوصاً تلك التي تعاملت مع النص القرآني. أما في التراث النقدي القديم فإننا لا نجد المصطلح بعينه – أي الإيقاع- غير أننا نجد ما يشي بحسهم الإيقاعي بتعابير يظهر فيها هذا الإحساس جلي، فهم حين يتكلمون عن" الانسجام و الاتفاق بين الأصوات في كلمات متتالية"[2]إنما يومئون بذلك إلى الإيقاع، من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون.

و لأنهم لم يتواطؤا على مصطلح الإيقاع فإنهم عبروا عنه بألفاظ هي من أوصافه، فقالوا بإتلاف الحروف و تنافرها، و قالوا بالتوافق و التناغم و رقة الألفاظ وفخامتها، و لا شك أن ذلك كله يؤدي إلى

[1] - إميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية، ص 89.
[2] - وهبة مجدي، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، ص 125.

الإيقاع، باعتبارهم يتعاملون مع اللفظ؛ الذي عرفوه على أنه الصوت[1]، و هل الصوت إلا مادة الإيقاع.

و لعلنا إذ نقف وقفة تأمل و دراسة للشعر العربي بشتى أغراضه و بكل موضوعية، لا تملك إلا أن نقول: أن العرب القدامى "لشدة ولعهم بالإيقاع وإدراكهم لقيمته الجمالية و التعبيرية، لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر، بل زينوا به كثيرا من أصناف كلامهم المنثور"[2]، و تقف خطبهم التي وصلتنا شاهد على ذلك.

يقول مبارك زكي: "و ما جمعه العرب من خطب الجاهليين أكثره مسجوع، كخطبة قس بن ساعدة و خطبة النابغة الذبياني، و مع أننا نرتاب في صحة تلك الخطب، فإننا نرى في وضعها مسجوعة على فرض صحة الوضع؛ دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية، لأنهم اقرب إلى ذلك العهد"[3]، وما دامت خطبهم تلك - و لا شك - مسموعة فلا بد لها من الإيقاع، الذي يفعل في المتلقي فعله؛ من أسر و تأثير و تجلية للمعنى.

و يشهد لذلك أيضا أن نظم العرب و كلامها لا يكاد يخرج في الطرق التي يألفون بها عن إحدى أساليب يتصدر الإيقاع فيها المكانة البارزة، حيث التوازي والتساوي و التوازن و الأسجاع.

كذا نجد الرسول صلى الله عليه و سلم يعتمد نوعا من الإيقاع في كلامه؛ و هو السجع، و الذي استعملته العرب كوعاء للإيقاع. يقول ابن الأثير أن النبي صلى الله عليه و سلم قد نطق بالسجع كثير، حتى أنه غير الكلمة عن وجهها إتباعا لها بأخواتها من أجل السجع[4]، و مثل لذلك بأحاديث عديدة منها: ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "استحيوا من الله حق الحياء" قلنا: إنا لنستحي من الله يا رسول الله. قال: ليس ذلك. و لكن الاستحياء

---

[1] - ينظر: محمد التونجي، راجي الابر: المعجم المفصل في علوم اللغة- الألسنيات، ج1، مراجعة: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م، ص 526.

[2] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن (دراسة في النظم المعنوي و الصوتي)، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1992م، ص 216.

[3] - مبارك زكي: النثر الفني في القرن الرابع. ج1، دار الكتاب العربي، دتا، ص76-78.

[4] - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ج1، تحقيق: احمد الحوفي و د. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر،ط1379،1هـ /1959م، ص 272-273.

من الله أن تحفظ الرأس و ما وعى، و البطن و ما حوى، و تذكر الموت و البلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا"[1].

و هكذا؛ نجد أحاديث كثيرة فيها مراعاة الإيقاع، إن بصرف الكلمات عن وجهها المعتاد، أو إتباع نظام معين في ورودها، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "إرجعن مأزورات غير مأجورات"[2]. والأصل في مأزورات موزورات بالواو، غير أنها جاءت مأزورات محاذاتنا لكلمة مأجورات، و مشاكلة لها في الجانب الصوتي، " وفي اللغة يقال رجل موزور غير مأجور، ولما قابلوا الموزور بالمأجور قلبوا الواو همزة ليأتلف اللفظان ويزدوجا"[3]، وفي هذا الحديث نلاحظ كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام عمد إلى القلب؛ الذي هو" قلب أحد الأصوات إلى صوت آخر لتصبح الكلمة في مجموع أصواتها محاذية لكلمة بعدها أو قبلها "[4]، وهذا لتحقيق التناسب الصوتي بين الكلمتين، وطبع الحديث بنوع من الإيقاع.

و منه فالإيقاع في الأدب يمثل تلك المراعاة للخصائص الصوتية، و الإفادة منها لإبلاغ الرسالة الأدبية، و طرح المعاني في طريق السامعين أو القارئين. و هو لذلك يبدوا في السجع و الجناس و التكرار و لزوم ما لا يلزم و غيرها من أساليب اللغة.

3- مصطلحات مشاكلة للإيقاع:

إنّ حداثة الدرس الأدبي المتعلق بالقرآن الكريم جعل هذا الحقل يعج بالمصطلحات، التي تلتقي كلها في كونها تعبر عن ميزة التفوق التي حظي بها القرآن، كونه كتاب الله الذي ظل و يظل معجزا إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، فكل كلام مهما بلغ من الفنية؛ لا شك هو فاقد لها بعد حين، و مهما بلغ تأثيره؛ إلا ويأتي عليه اليوم الذي يفقد هذا البريق و التأثير. و لعله " من السهولة بمكان أن يحدث التعبير الصادق الجميل تأثيرا مؤقتا، و لكن اقتداره على أن يظل

---

[1] - أخرجه الترمذي في سننه.
[2] - أخرجه ابن ماجة في سننه.
[3] - إبراهيم عبد الجواد: موسيقى اللغة، دار الآفاق العربية، القاهرة، دط، 1423هـ/2003م ، ص 24.
[4] - المرجع نفسه، ص 24.

مؤثرا إلى مدى طويل فهو الأمر الكبير حقا، حيث يضمن للعمل الأدبي سمة التمكين والخلود"[1].

أما القرآن فقد فاق كل تعبير أجمعت العرب على جماله و تأثيره، حوى من مقومات العمل الأدبي أسس التمكين و الخلود، و جاء إلى النفس الإنسانية من كل أبوابها و نوافذها، و استعمل من اللغة كل مكامن الجمال فيها، و مما استعمله الخصائص الصوتية للغة، و التي أحسها الدارسون للقرآن، فعبروا عنها بتعابير متباينة، فذكرها البعض تحت مسمى الإيقاع، و الآخر تحت مسمى الموسيقى القرآنية، وسماها آخرون الصوت القرآني، و لما طرب البعض الآخر و شجاه الصوت القرآني عبر عنه بالنغم، و من وقف على بعض حروفه كتب أن لها جرساً، و نكاد لذلك نردد المثل: (كل الطرق تؤدي إلى مكة)؛ إذ مع تعدد الأسماء يبقى المسمى واحد والجوهر واحد؛ وهو أن القرآن في جانبه الصوتي فاق كل نظم و نثر للعرب.

و أحببنا في هذا العنصر من البحث أن نعرج على تلك الأسماء لنلمح التداخل بينها و لنلتمس العذر لمن استعملوها فلعلهم من شدة الروعة و قوة التأثير كأنهم قالوا اللهم أنت ربي و أنا عبدك، و فيما يلي تعريج على تلك الإطلاقات:

الموسيقى:

تتفق الأبحاث و الدراسات على أن الموسيقى " لفظة يونانية؛ ومعناها علم الألحان، وسماها المتأخرون الغناء؛ لأن النفس تستغني به عن غيره من الملاذ البدنية في حال سماعه"[2]، و لاستعصاء تعريفها قيل أنها " حكمة عجزت النفوس عن إظهاره في الألفاظ، فأظهرتها الأصوات البسيطة"[3].

و هناك من يرى أن الموسيقى " هي لغة العواطف والوجدان ولنغماتها درجة من الشدة أو الضعف واللين والقوة والسرعة والبطء

---

[1] - محمد بن سعد الدبل: الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مكتبة العبيكان، ط2، 1998م، ص117.

[2] - عيد سعد يونس: التصوير الجمالي في القرآن، ص 229.

[3] - المرجع نفسه، ص 229.

ونحو ذلك"[1].و على ذلك يكون للموسيقى أثر فاعل في نفسية المتلقي لها؛ بدغدغة العواطف والأحاسيس من خلال الأنغام والإيقاعات الناشئة من عناصرها.

ولعل مناسبة إيرادنا لهذا المصطلح هو من جهة :

أولا: أن البعض ممن عني بدراسة الخصائص الفنية في القرآن يستعمل هذا المصطلح ليعبر به عن القدرة الفنية للقرآن الكريم، المتمثلة في أصواته المتلائمة وحروفه المتآلفة وأصواته التي تمتاز بحسن التناسق وسلاسة المخارج، فجاءت تعابيرهم بأوصاف شتى .

ثانياً:من ناحية تحرج البعض إيراد هذه اللفظة في الدراسات القرآنية، والقول بهذا يعد تهربا من الأسماء في حين بقاء المسميات، و إن عدنا إلى التعاريف السابقة؛ وجدنا ما في القرآن من خصائص صوتية ينطبق عليه تماما ما ورد فيها، فهو – أي القرآن- يستغني به سامعه عن كل ما يلذه عداه متى سلمت فطرته، و يزيد ذلك حسنا ولذاذة حسن صوت قارئه، كما أن ما يلحقه بالقلوب و النفوس من الأثر لا يضاهيه اثر سواه.

و تأسيسا على ما سبق يجب ألا نتحرج من استعمال المصطلح ما دام قد دخل معجمنا و لغتنا و نقدنا و أصبح جزءا من تفكيرنا التراثي، و نحن في وقت يعنينا فيه أن نوضح مبلغ إعجاز كتابنا المقدس فنياً و أداءًا؛ أكثر مما تعنينا أو تحرجنا حساسية فائقة أو زائفة تجاه بعض المصطلحات " و ما دام المصطلح لا يمس العقيدة و لا الشريعة بقدر ما يوضح روعة القرآن أسلوبا و أداءاً، و يبين أو يساعد على بيان مدى إعجازه"[2].

لا تثريب إذن على استعمال المصطلح، غير أننا ننحو منحى الدارسين القدامى حين سمو ما ورد في القرآن فواصلا تمييزا لها عن أسجاع النثر و تأدبا مع القرآن، فلذلك جاءت هذه الدراسة بمسمى الإيقاع لا الموسيقى، و قد يرد فيها مصطلح الموسيقى إن كان مما احتوته الشواهد أو استعمالا يقصد به الإيقاع.

---

[1] - عبد الحميد حسن: الأصول الفنية للأدب. نقلا عن: الخالدي، عبد الفتاح: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الشهاب، الجزائر، 1988م، ص 94.

[2] - نعيم اليافي: عودة إلى موسيقى القرآن، موقع: www.islamhc-sufism.com.

أما ثالث الجهات، فباعتبارنا نتعامل مع نص نعده أدبي من الطبقة الأولى، والدارسون يجمعون على موسيقية اللغة العربية، إذ "بين الأدب و الموسيقى قدر كبير من الاشتراك، فكليهما يستعمل مادة الأصوات الزمنية، فالموسيقى تستعمل أصواتا لا معنى لها كمادة أولية، و الأدب يستعمل أصواتا مليئة بالمعاني هي الألفاظ"[1].

و إن كان "الإيقاع بمعناه الحقيقي لا يتحقق كاملا إلا في الموسيقى، و يتحقق جزئيا في أوزان الشعر و تنغيم النثر"[2] فان القرآن جمعهما الاثنين، و فوق ذلك حوى إيقاعاً لا يقاربه إيقاع يتفرد بخصائص تميزه كل المميزة عن غيره من الإقاعات في الأدب؛ شعراً و نثراً، فكيف بنا القرآن عنة الموسيقية إذا كان هذا شانه.

الجرس:

ورد في لسان العرب لابن منظور ما يلي:
الجرس: مصدر الصوت المجروس، و الجرس الصوت نفسه. و قيل: الجَرس و الجِرس الصوت الخفي.
و يقول ابن سيده الجَرْسُ و الجِرْسُ و الجَرَسُ: الحركة و الصوت من كل ذي صوت. و جرست و تجرست: نطقت بشيء و تنغمت به.
و فلان مجرس لفلان يأنس بكلامه، و ينشرح بالكلام عنده[3]. قال: أنت لي مجرس إذا نبا كل مجرس.
و أجرس الحادي إذا حدا للإبل؛ قال الراجز:

أَجْرِسْ لَهَا يَا ابْنَ أَبِي كُبَاش
فَمَا لَهَا اللَّيْلَةَ مِنْ إِنْفَاش
غَيْرَ السُّرَي وَ سَائِقٍ نَجَّاش

أي أُحدُ لها لتسمع الحداء فتسير.
الجرس: الصوت أو خفيه، و يكسر أو إذا افرد فتح مثل ما سمعت له جرساً و إذا قالوا :ما سمعت له حِساً و لا جِرساً، كسروا. و جرس الحادي: حدا، و جرس الحلي: صات. و التجرُّس: التكلم[4].

---

[1] - عبد العزيز عتيق،: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1972م، ص54.
[2] - سيد قطب: النقد الأدبي أصوله و مناهجه، ص 111.
[3] - ابن منظور: لسان العرب، ج1، مادة جرس، ص 407.
[4] - الفيروزآبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م، ص 559.

و جرس الكلام: نغم به، و الحروف كلها مجروسة إلا أحرف اللين[1].
و جرس الحرف نغمته و الحروف الثلاثة الجوف و هي الياء و الألف و الواو، وسائر الحروف مجروسة[2].
و الجرس: إجمال الخطاب الإلهي الوارد على القلب بضرب من القهر، و لذلك شبه النبي صلى الله عليه و سلم الوحي بصلصلة الجرس[3].

و بالنظر إلى ما سلف من أقوال في مادة الجرس تبدى لنا أنها تعني الصوت؛ لا مطلقه، و إنما المقترن بنغمة، و قد يضاف إلى ذلك الحركة كما أورد ابن سيده.

و ما يصب من هذه التعاريف في قالب الدراسة، أن "جرس الحروف صوتها المنغم، و هي تختلف في صفاتها على حسب مخارجها و جرسها و نغمة صوتها عندما ينطق بها، و لذلك قيل: حروف الهمس و حروف الإستفال..."[4]، ، و ما يعنينا أيضا في ذلك أن للكلمات جرس "هو نغمتها و صوتها، و إيقاعها الذي يحصل نتيجة التلاؤم بين حروفها، و ائتلاف هذه الحروف و توافق أصواتها و حلاوة جرسها"[5].

و كما تعنينا الحروف و الكلمات، تعنينا أيضا الجمل و العبارات بإيقاعها الصوتي الحاصل من تلاؤم الكلمات فيما بينها بعد أن ائتلفت فيها الحروف. يقول عبد الفتاح الخالدي: "الجرس يكون في الحروف و الكلمات و العبارات و هو نوع من أنواع الإيقاع للعبارات"[6].

و من خلال ما سبق من تعاريف نلاحظ التداخل بين مصطلحات هي: الجرس والنغم و الصوت، و هذا طبيعي لنضج الدراسات الصوتية؛ خصوصا المتعلقة بالنص القرآني.

---

[1] - الزمخشري: أساس البلاغة، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 1996م، ص 56.
[2] - ابن منظور: لسان العرب، مادة جرس، ص 407.
[3] - الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1985م، ص 78.
[4] - عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الشهاب، الجزائر، 1988م، ص90.
[5] - المرجع نفسه، ص 90.
[6] - المرجع نفسه، ص91.

النغم:

النغم: محركة و تسكن (أي بالحركة فوق الميم أو بالسكون)، الكلام الخفي، الواحدة: بهاء، و نغم في الغناء كضرب و نحر و سمع. و النغمة: الجرعة[1].
و النغم الكلام الخفي. و النغمة: الكلام الحسن، و قيل: هو الكلام الخفي.
النغمة: جرس الكلمة و حسن الصوت بالقراءة و غيرها، و هو حسن النغمة. والجمع نَغُمٌ؛ قال ساعدة بن جؤية:
لَو أَنَّهَا ضَحَكَتْ فَتَسْمَعُ نَغْمَهَا رَعْشَ الْ مَفَاصِل، صَلْبُهُ مُنْتَحَبِ.[2]
و يقول عمر السلامي مستوحيا من تلك التعاريف أن النغمة جرس الكلمة و حسن الصوت في القراءة و غيرها[3].

الصوت:

في لسان العرب يعني الجرس و الجمع أصواتٌ. قال ابن السكيت: الصوت صوت الإنسان و غيره و الصائت الصائح، و رجل صيت: أي شديد الصوت[4].

و اللغة عند ابن جني " أصوات يعبر بها كل قوم عن إغراضهم"[5]، إغراضهم"[5]، من ذلك جاء تعريفه للصوت لغويا على انه "عرض يخرج من النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق و الفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده و استطالته، يسمى المقطع أينما عرض له حرف و تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها"[6].

---

[1] - الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص 1184.
[2] - لسان العرب، ج6، مادة نغم.
[3] - ينظر: عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، ص 216.
[4] - لسان العرب، ج4، مادة صوت.
[5] - ابن جني: الخصائص، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،لبنان،ط2، 1424هـ/2002م، ص 87.
[6] - ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، ص19.

و يقول " و لكن هذا القبيل من هذا العلم أعني علم الأصوات و الحروف له تعلق و مشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات و النغم"[1]، و هو هنا يربط الصوت بالموسيقى و النغم، و كل منهما مشكل لمادة الصوت إضافة إلى الجرس.

كما "يميز ابن جني بين الجرس الصوتي لكل حرف معجمي بحسب اختلاف مقاطع الأصوات فتلمس لكل حرف جرسا و لكل جرس صوت"[2] و باجتماع أجراس الحروف يكون للنص خصائص صوتية تميزه، عبر عنها البعض بإيقاع النص و آخرون بموسيقى النص.

و ابن جني أول من عني بدراسة أصوات اللغة فأفاض فيها، و كان رائد هذا العلم؛ و هو علم الأصوات، لذلك سنقف عند ما قاله بهذا الشأن لنهتدي إلى علاقة الصوت بالإيقاع و التداخل بينهما.

المبحث الرابع :الإعجاز النفسي التأثيري للقرآن

1- تعريف الإعجاز التأثيري للقرآن:

لقد خلق الله الجمال و جعل القران محفوفا به من كافة جوانبه، فلا تكاد تقع عينك على جزء منه إلا و تجلى لك الجمال بأبهى صوره، و لا تكاد تسمع أذنك طرفا من حديثه إلاّ و راعها ما فيه من الجمال، و من عجيب قدرة الله في الإنسان أن وهب له نفسا حساسة تحس الجمال و تستجيب له أينما وجد، و في أي صورة كان، " ذلك الاستعداد الذي يتجاوب مع روح الكون و يتواءم مع حقيقة الوجود تجاوبا مباشرا و عميقا منذ الوهلة الأولى التي تلتقي فيها الحواس البشرية بمظاهر الجمال"[3]، وهذا الجمال الذي خص به القرآن هو مكمن الإعجاز و موصف الأثر، به قام الإعجاز و خلدت المعجزة.

و إعجاز القرآن في ألفاظه و آياته إعجازا علميا و فنيا و اجتماعيا و اقتصاديا وكونيا و لغويا، و قبل ذلك كله نفسيا، فهو بذلك الإعجاز

---

[1] - ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص 22.

[2] - محمد حسين الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1420هـ/2000م، ص 15.

[3] - عيد سعد يونس: التصوير الجمالي في القرآن، ص 61.

"سحر الباب العرب عندما تلقته نفوسهم مأخوذين مبهورين، حتى الذين لم يسلموا منهم"[1]، مع ما عرف عنهم من تفوق في البلاغة و البيان.

و جملة الدراسات التي أقيمت حول هذا المعطى الجمالي و المصدر اللغوي الثر للغة العربية و آدابها، و التي لمع فيها كثير من العلماء القدامى و المحدثين[2]، لا تعدو كونها إستحضارات بلاغية، أحيانا لألوان من البديع و البيان، و أخرى لآثار منذ بداية نزول الوحي أو دراسات نحوية صرفية، إلا أننا لا نكاد نجد دراسة أغفلت النظر في هذا النوع من الإعجاز، و إن من الدارسين من لم يعده من وجوه الإعجاز.

و إذا كان الحد الصحيح للبلاغة في الكلام انطلاقا من معناها اللغوي "أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع، بإصابة موضع الإقناع من العقل و الوجدان من النفس"[3]، فإن أي كلام يبلغ الغاية في ذلك و التمام، و يعجز كل من توافرت له أسباب الإتيان بمثله، يسمى معجزا و مؤثرا، و هل وظيفة البلاغة إلا أن تمنح التعبير جمالا و تهبه تنوعا في الأسلوب، و تعطيه الإيقاع الذي يجذب النفس و يفهم العقل.

لقد ارتقى القرآن بالبلاغة بعد أن كانت شيئا لا يذكر، و جعل منها فيه وجها من وجوه الإعجاز؛ شغل فكر المسلمين منذ نزول القرآن، فغدت بذلك علما قائما بذاته، مستقلا في بنائه، لا ينفك الأدب عنه؛ لأنه رافد من روافده، و وسيلة من وسائله، و الأدب في رمته يقصد إلى التأثير في المتلقي و جذب السامع، و القرآن كنص أدبي رفيع المقام رباني المصدر راقي الغاية، له من الأثر و الأسر ما يشهد به كل من لامست آياته آذانه، أو تمتمت بها شفاهه، فتراه يصنع بالقلوب و النفوس الشيء العجاب.

---

[1] - المرجع نفسه، ص 65.

[2] - أمثال: الزمخشري في مؤلفه الكشاف، الزركشي في البرهان، السيوطي في الإتقان، الرافعي في كتابه إعجاز القرن و البلاغة النبوية، سيد قطب في مؤلفاته: الظلال، التصوير الفني، البوطي في كتاب من روائع القرآن...

[3] - أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1402هـ/1982م، ص37.

و متى اجتمعت لنص أدبي أيا كان تلك المقومات و الدلائل و العلامات أمكننا الحديث عن فنيته، كيف و الإجماع منعقد على فنية النص القرآني، بل إعجازه في هذا الجانب، لأن "المعيار الحقيقي الذي به يمكن التعرف على و جود الفن و قيمته يرجع إلى التأثير الوجداني، فعندما يبعث فينا العمل الفني شعور الغبطة أو الانبهار أو النشوة أو غيرها من مشاعر الجمال أو الإعجاب التي تؤثر في الوجدان، يمكننا عندئذ أن نجزم بوجود الإنتاج الفني الأصيل"[1]، و القرآن بلغ الغاية و الصدارة في صفة الفنية، حتى أن الإحساس الفني به يتولد في كل نفس تتعامل معه مباشرة أو بواسطة.

إنّنا لو تلمسنا ذلك الأثر بعد نزول القرآن وجدناه ماثلا في السلوك العملي للرعيل الأول الذين اخذوا بالقرآن مبهورين، فشغلهم تطبيق أوامره عن الإلتفات إلى التأليف فيه، أو وضع القواعد و الأصول، و إنما كانت تصرفاتهم و أعمالهم ترجمة حقيقية للأثر الذي لحقهم من القرآن، و كتب السير تعج بالأخبار الدالة على ذلك، فكان الإعجاز التأثيري النفسي في هذه الموحلة ممارسة عملية في حياة المسلمين.

و بعد مضيّ فترة الانبهار في الإسلام و الإعجاب بالقرآن أخذت الأقلام تكتب في إعجاز القرآن، و دافع هذه الكتابة -كما سبق المقال- الأثر النفسي الذي خلفه القرآن في نفوس هؤلاء، فانبرت الأقلام للكتابة في المكي و المدني و المشتبه و المتشابه و أسلوب القرآن و قصصه و غيرها من المباحث، فكانت لفتات متناثرة هنا و هناك تشي بالأثر النفسي التأثيري للقرآن الكريم.

و الغائص في الموروث النقدي المتعلق بالقرآن و ما أقيم حوله من دراسات، يجد نفسه أمام كم هائل منها، الدافع الرئيس من وراءها؛ هو الأثر الذي تلحقه بالدارس لذلك فـ"عملية التأثير التي تتأسس بين القرآن و بين المتلقي كانت المحرك الفعلي لمثل هذه الدراسات التي تكلمت في مفاهيم كثيرة وردت في الخطاب التراثي البلاغي مثل:

[1] - عبد العزيز عتيق،: في النقد الأدبي، ص 14.

الاستجابة التشوف و الانشراح و الاستبشار ... و غيرها من الألفاظ الدالة على التحرك النفسي و الاهتزاز الذاتي أمام البيان القرآني"[1].

و لعلَّ هذا هو السبب الذي جعل كثيرا من العلماء يشيرون إلى اعتبار إعجاز القران الكريم يكمن في هذا الوجه، و قد كان نبه إلى هذا اللون من ألوان الإعجاز الذي يشتمل عليه القرآن الإمام الخطابي في منتصف القرن الرابع، يقول في ذلك: "في القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم و ذلك هو صنيعه بالقلوب و تأثيره بالنفوس"[2]، فهو يعده وجها مستقلا إضافة إلى أوجه الإعجاز التي تعارف عليها الإعجازيون.

و يقول مسترسلا: " فانك لا تسمع غير القران منظوما و لا منثورا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة و الحلاوة في حال و من الروعة و المهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس و تنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب و الفلق و تغشاها الخوف و الفرق و تقشعر من الجلود و ترتعد له القلوب يحول بين النفس و بين مضمراتها و عقائدها الراسخة"[3].

و الخطابي في كل ما سبق يأصل لمذهبه في القول بأدلة قرآنية و مواقف من السنة فأورد قصة الملأ من قريش حين أرسلوا عتبة بن ربيعة للتفاوض مع الرسول فرجع إليهم يغير الوجه الذي ذهب به بعد أن اسمعه الرسول شيئا من القرآن و قصة إسلام عمر ابن الخطاب بعد سماعه سورة طه، و قصة النفر من الجن الذين سمعوا القرآن فقالوا "إِنَّا سَمِعنَا قُرْءاناً عَجَباً يَهدِي إِلى الرُّشدِ فَأمَنَّا بِه"[4]؛ و أَجمل الشواهد بالقول: و " كم من عدو للرسول-صلى الله عليه و سلم- من رجال العرب و قتاكها اقبلوا يريدون اغتياله و قتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في أسماعهم أن يتحولوا عن رأيهم

[1] - عبد القادر عبو: نظرية جمالية التلقي.
[2] - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1387هـ/1968م، ص 70.
[3] - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 70.
[4] - سورة الجن، الآية 01-02.

الأول، و أن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه"[1].و في كل ما تقدم لا يعطينا الخطابي تعريفا واضحا، بل جملة من الأوصاف و مظاهرا لهذا التأثير.

أمّا من عقبوا الخطابي -كالجرجاني- فالتأثر بنظرته للإعجاز التأثيري النفسي للقرآن يبدوا واضحا من خلال تدليلهم على الإعجاز القرآني و وقوف العرب منبهرة إزاءه، فعبد القاهر الجرجاني يستدل على عجز العرب أمام القرآن بحديث الوليد بن المغيرة و قوله عن القرآن، و قول عتبة بن ربيعة، و قول أبي ذر و أخوه أنيس عن القرآن كلاما يشبه ما قاله سابقيها و هي الشواهد التي اعتمدها كل من تحدث عن هذا النوع من الإعجاز حتى أنه في تحليله للشواهد القرآنية[2]، يقول بالحسن و الروعة و المأخذ من القلب و لطف الموقع و الأريحية، و كلها لها اتصال بالنفس.

كما نجد ابن القيم يقول عن تلقي القران " يقع في النفوس عند تلاوته و سماعه من الروعة ما يملأ القلب هيبة و النفوس خشية و تستلذه الأسماع و تميل إليه بالحنين الطباع سواء أكانت فاهمة لمعانية أو غير فاهمة عالمة بما يحتويه أو غير عالمة كافرة بما جاء به أو مؤمنة"[3].و هو إيحاء إلى تأثير القرآن في النفوس.

و من الدارسين المحدثين من يرى أن القدر الأكبر من الإعجاز القرآني يتأتى من هذا النوع فيقول: " و عندي أن قدرا كبيرا من إعجاز القران يرجع إلى هذا النوع فما أظن امرء سليم الفكر و الضمير يتلو القران أو يستمع إليه ثم يزعم انه لم يتأثر به، لأنه ما من هاجس يعرض النفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية، إلا ويعرض له القران بالهداية و سداد التوجيه"[4].

---

[1] - المرجع السابق، ص 70.

[2] - يقول في تحليله للآية التالية:" و لتجدنهم احرص الناس على حيواة" : "إذا أنت راجعت نفسك، و أذكيت حسك وجدت لهذا التنكير، و أن قيل (على حياة) و لم يقل على الحياة حسنا و روعة و لطف موقع...وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، و تخرج عن الأريحية و الأنس إلى خلافهما". الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 194.

[3] - ابن القيم: الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، مكتبة الهلال، دتا، ص7.

[4] - محمد الغزالي: نظرات في القرآن، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1986م، ص 123.

و يعرفه محمد عطا احمد يوسف في محاولة لمقاربة حد الإعجاز التأثيري النفسي للقرآن، يقول: هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم. أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من اثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه، و لا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته و دفعه، و لا يقتصر ذلك على المؤمنين به"[1].

إننا عندما نقرا اليوم في كتب السيرة موقف الوليد بن المغيرة عند سماعه تلك الآيات الباهرات من الرسول و حيرته في وصفها و ما تملكه من الدهشة و العجب لا يمكن تفسيره إلا بالأثر النفسي الذي لحق الوليد، و يلحق كل من لامست آيات القران مسامعه، لأننا لا نحسب أن الوليد ما سمع مثل تلك القيم التي سمعها من الرسول، أو ما سمع من جميل القول و متجانسة نظما قبله في الجاهلية، و لكن الشيء الذي اثر فيه و ملك عليه نفسه و قلبه هو ذلك الشيء الذي لم يستطع معه إلا أن يقول " إن عليه لطلاوة و ما هو بقول بشر".

2- مظاهر التأثير النفسي:

في محاولة العلماء تأصيل الإعجاز التأثيري و إيجاد تعريف له لم تصل بهم نوقهم إلى حيث أرادوا، لكن مع ذلك قدموا لنا كما هائلا من مظاهر هذا التأثير نستقيها من الشواهد القرآنية و أحداث السيرة التي دللوا بها، فالقرآن " من فجر المبعث، فرض إعجازه على كل من سمعوه من العرب على تفاوت مراتبهم في البلاغة، و قد تحير المشركون في وصفه، و حرصوا على أن يصدوا العرب عن سماعه، عن يقين بأنه ما من عربي يخطئه أن يميز بين هذا القرآن و قول البشر"[2].

و إن تطلبنا مظاهر لهذا التأثير فإن آية واحدة من كتاب الله تجلي و تكشف لنا مرادنا، و هي قوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ

[1] - محمد عطا احمد يوسف:الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية،ع 4، ديسمبر 1985م، ص22.

[2] - عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن و مسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط3، دتا، ص39.

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "[1]، غير أننا سنستأنس بما ورد في السيرة و غيرها من الموارد لنزيد إيضاحا واستدلالا.

في القرآن الكريم يخبرنا الله تعالى في سورة الجن عن النفر من الجن الذين سمعوا القرآن فتأثروا فترجموا ذلك الأثر إيمانا في ذواتهم و دعوة لإخوانهم، و يخبرنا أيضا في سورة المائدة عن وفد النصارى الذين فاضت أعينهم من الدمع بعد سماعهم الحق الذي عرفوه في كتبهم، و في مقابل الذين أحياهم الله بأثر القرآن الطيب في نفوسهم؛ يحكي لنا جملة من تلك الآثار على أولئك الذين علفوا قلوبهم بمواريث الجاهلية البالية؛ فالاشمئزاز و الحقد و الحنق و الكيد للرسول و من اسلم معه.

اما في السيرة ففي ترجمة الصحابي جبير بن مطعم بن عدي القرشي رضي الله عنه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسرى بدر، وهو وقتئذ مشرك، فدخل على الرسول وهو يقرا في المغرب بسورة الطور، فلما انتهى صلى الله عليه وسلم إلى آيات منها كاد جبير يطير، و مال إلى الإسلام.

و السيرة تطالعنا بقصة إسلام عمر بن الخطاب، إذ خرج ذات مساء متوشحا سيفه يريد الرسول، فثناه سائل عن بغيته حين أعلمه أن من أهل بيته من صبا، فقصد بيت صهره و قد رابه ما سمع، فسمع من البيت صوت تلاوة خافت... فأسلم بعد سماعه شيئا من سورة طه.

و يمكن إجمال مظاهر التأثير النفسي للقرآن على المؤمنين فيما يلي:

و جل و اطمئنان في القلوب بدليل قوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ و إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً و عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"[2]، و قوله تعالى: "الَّذِينَ ءَامَنُوا و تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[3]. و هذه المظاهر إن كانت

[1] - سورة الزمر، الآية 23.
[2] - سورة الأنفال، الآية 02.
[3] - سورة الرعد، الآية 28.

باطنية إلا أنها تظهر سلوكا، كالخشوع و السجود و قشعريرة الجلد و فيض الدمع من العيون.

أما الكافرون ممن أنكروا القرآن و جحدوا آياته مع استيقان أنفسهم أنها من عند الله ؛ فمظاهر التأثير يترجمها الضجر و التأفف و الاشمئزاز. لقوله تعالى: و" إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَة"[1]، و قوله تعالى: " و إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْه"[2].

و مع حرص القرآن على أن يسجل لنا تلك المواقف التي تنبئ بالأثر الفعلي للقرآن في كل النفوس، نقرأ – إضافة إلى ذلك- في السيرة جملة من أخبار الذين تأثروا بالقرآن فاسلموا، و ممن قالوا في القرآن مقالات ظل التاريخ يحدث بها مع أنهم لم يسلموا.

و يظل أكبر مظهر على قوة القرآن و سطوته على النفوس و أثره فيها، تلك النقلة العجيبة التي حولت رعاة الأغنام إلى قادة الأمم، من الجاهلية التي تداس فيها الحقوق و تسفك فيها الدماء إلى الإسلام، في ظرف وجيز لا يقاس في عمر الزمن، مقارنة بأعمار تطور الأمم السابقة و اللاحقة. إضافة إلى ما أكسبه للغة العربية من تطور وثبات في نفس الوقت، و حصانة تظل بها خالدة خلوده.

3 - الإيقاع و الإعجاز النفسي:

السَّمع هو الأداة الأولى و المباشرة لنقل الكلام، و هو الوسيلة الأنسب لفتح القلوب، و هذا سر يقف وراء الترداد الكثير للفظ السمع في القرآن، و تقديمه أحيانا على باقي الحواس الأخرى، "و الأذن هي الحاسة الوحيدة التي تستقبل النص ثم تنقله بعد ذلك إلى مراكز الإحساس و مناطق التأثير و أماكن الذوق ...و لا سبيل إلى الأذن إلا الصوت..و على هذا لا بد أن تتوفر في النص القديم عدة عناصر ذات تأثير على الأذن، تكمن في الصوت من مؤثرات إيقاعية و تلوين في

[1] - سورة الزمر، الآية 45.
[2] - سورة يونس، الآية 15.

الأداء و ثراء نغمي وجمال في العرض"[1]؛ فيكون بذلك حدوث التأثر النفسي لاحق لحدوث اللذة السمعية.

و لعلم الله عز و جل أن " السمع نافذة على النفس، و حافز على الانفعال والتفاعل مع متطلبات دينية حيوية و أخروية"[2]، حض على جمال الأداء في قوله تعالى: " و رَتِّلِ الْقُرآنَ تَرتِيلا"[3]، بمراعاة دقائق النسق القرآني من إعطاء الحروف حقها في النطق و المخرج و احترام حركات الألفاظ و مواضع الوقف و غيرها من القوانين السمعية الأدائية التي يعنى بها علم تجويد القرآن.

و عندما نتحدث عن الإعجاز النفسي للقران الكريم فإننا استلزاما نتحدث عن إعجاز نفسي للغة التي جاء بها القران و قد علمنا أن اللغة العربية التي نزل بها القران لغة موسيقية و استعملتها العرب استعمالا موسيقيا يبدو ذلك جليا فيها حتى و إن لم يفهم ما وراء تلك اللغة و القرآن بلغ من هذه الخاصية مبلغا و درج على استعمال العرب للغة إذ "كانوا يحفلون كثيرا بالعنصر الموسيقي و لم يكن ذلك عندهم من قبيل الترف و لإهدار الطاقات، و إنما عدوه وسيلة فعالة من وسائل الاتصال والتبليغ؛ إذ به يؤثر في المتلقي فينفعل و تتحرك مكنوناته فينصاع لذلك العمل الفني و ينجذب إليه"[4] فكان لذلك؛ القرآن موسيقيا موقعا في آياته و جمله و سوره.

و المتلقي للقرآن يجد له جاذبية و يحسُّ له أثرا، يقول سيد قطب: "إن في القرآن سرا خاصا، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً قبل أن يبحث في مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر أن هنالك عنصرا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يصعب تحديد مصدره:

---

[1] - عباس بيومي عجلان: الأداء الفني للنص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص85.

[2] - احمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز و التفسير، دار المكتبي، دمشق-سورية، ط1، 1415هـ /1994م، ص 78.

[3] - سورة المزمل، الآية 04.

[4] - بلعرج بلقاسم: من سمات الأداء في ثقافة العرب الأولين(الإيقاع)، مجلة التراث العربي، ص 69.

أهو العبارة ذاتها.
أهو المعنى الكامن فيها.
أهو الصور و الظلال التي تشعها.
أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ...
ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء"[1].

و سيد قطب في مقولته هذه يثبت الإعجاز النفسي التأثيري للقران، لكنه يحار في منبعه، غير أنه سلط الضوء على جوانب فنية في النص يعتقدها مكمن السر وراء ذلك. و نجده في موضع آخر ينكشف له السر أو بعضه، فيقول عن العرب الأُولى الذين تلقوا القرآن: " لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، و سحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، و أخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل "[2]، و منه ندرك أهمية الإيقاع في الجانب التأثيري للقرآن فهو إلى جانب عناصر أخري في النص يحدث نصيبه من التأثير ـ فكما أنه لا يمكن قصر الإعجاز القرآني على لون واحدة من ألوان الإعجاز ـ لا يمكن أيضا قصر هذا النوع من الإعجاز على الإيقاع وحده.

و تؤكد الكثير من الدراسات التي عنيت بالجانب الإيقاعي للقرآن العلاقة بين التأثير و الإيقاع " فانك إذا قرأت القرآن قراءة سليمة و تلوته تلاوة صحيحة أدركت انه يمتاز بأسلوب إيقاعي ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر الألباب و يسرق الأسماع و يسيل الدموع من العيون و يستولي على الأحاسيس و المشاعر"[3]. و يقول أبو زهرة في ذلك: " لو حاولنا أن نعرف سر ذلك النغم و تلك الموسيقى و ذلك التآخي لعجزنا أن نعرفه على وجه التحقيق، إنما نعرف تأثيره في نفوسنا إذا تهدت ووصلت إلى ذوق الأسلوب، و ذلك أمر يدرك لذوي الألباب و لا يعرف سره"[4].

---

[1] - سيد قطب: في ظلال القرآن: مج6، ص3399.
[2] - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، مصر، ط18، 1427هـ/2006م، ص 102.
[3] - محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن، ص 112.
[4] - محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، ص 265.

و الناظر إلى ما كتب عن الإيقاع لا يجد له استقلالا عن الأثر النفسي الذي يلحقه بالسامع، و يبدو شيئا طبيعيا؛ إذ الموسيقى هي لغة العواطف، يقول إخوان الصفا عن تأثير الموسيقى: " إن كل صناعة تعمل باليدين فإن الهيولى الموضوعة فيها إن هي أجسام طبيعية و مصنوعاتها كلها أشكال جسمانية إلا الصناعة الموسيقية، فان الهيولى الموضوعة فيها كلها جواهر روحانية و هي نفوس المستمعين، و تأثيراتها فيها كلها روحانية أيضا...فمن تلك النغمات ما يحرك النفوس نحو الأعمال الشاقة...و من الألحان و النغمات ما يسكن ثورة الغضب و يحل الأحقاد و يوقع الصلح و يكسب الألفة و المحبة"[1]، و قد رأينا ذلك في فعل الرسول مع مبغضيه من قريش حين يأتونه و الحقد يملا قلوبهم و البغض يقطر من وجوههم و ما إن تلامس أذانهم كلمات الله يتلوها الرسول عليهم حتى يسلموا و ينقلب البغض حبا و أي حب.

و إذ نتحدث عن الموسيقى في مقام الحديث عن الإعجاز النفسي للقرآن وعلاقته بالإيقاع، إنما نريد بذلك الموسيقى الطبيعية - لا بالمفهوم الوضعي الذي حرفها عن موضعها – المنبعثة من حروف القرآن وكلماته و أجراسه و نغماته و إيقاعه المتعدد المتنوع، و التي "هي في القرآن موسيقى بديعة بلا عزف، إلاّ إيقاع حروف الكلمات"[2].

وعلى اختلاف الآراء في القول بالموسيقى و تضاربها حول موقف الدين منها إلاّ أننا نخلص من كل ذلك إلى أن "الإسلام قد أباح استخدام الألحان في بعض صورها، منها تغبير القرآن، و الآذان حيث يقول ابن قتيبة لإقرار هذه الحقيقة؛ أن القرآن كان يغنى بقواعد لا تختلف عن القواعد الفنية المعتادة لألحان الغناء، و لقد أباح الفقهاء أنفسهم تغبير القرآن عند المالكية، و أباحوا أيضا تغبير الموسيقى"[3].

و يقول ابن الجزري " لقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت و لا معرفة بالألحان، إلا أنه كان جيد الأداء قيما باللفظ، فكان

---

[1] - إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء، دار بيروت، لبنان، دط، 1376هـ/1957م، ص183.

[2] - حليمة مدرس بوداود: معجزة الحروف، ص109.

[3] - عيد سعد يونس،: التصوير الجمالي في القرآن، ص 227-228.

إذا قرأ اطرب المسامع، وأخذ من القلوب بالمجامع، و كان الخلق يزدحمون عليه، و يجتمعون على الاستماع إليه أمم من الخواص و العوام، يشترك في ذلك من يعرف العربي و من لا يعرفه من سائر الأنام، مع تركهم جماعات من ذوي الأصوات الحسان عارفين بالمقامات والألحان، لخروجهم عن التجويد و الإتقان"[1].

إن نظرة فاحصة لكلام ابن الجزري توقفنا على كل ما أورده الرسول الكريم -صلى الله عليه و سلم- من أحاديث في شان إصلاح الصوت بالقرآن، و يجعلنا ندرك قبل ذلك صلة الإيقاع بالأثر الذي يلحقه في نفوس السامعين، إذ ليس القصد في الإيقاع القرآني العلم بالمقامات و ضروب الألحان؛ كما هو المتبادر، و إنما القصد ذلك الانفعال الذي يتلبس القارئ، فيجيء صوته موقعا من أثر انفعاله فينقل ذلك إلى المستمعين، و إلا كيف يستقيم قول الرسول صلى الله عليه و سلم " ليس منا من لم يتغنى بالقرآن". والرسول إنما قال مقولته بعد أن ولعت العرب بالغناء و النشيد، وأشبعت به نهم نفوسها.

لقد كان لموسيقى القرآن و نظمه روعة عند كل سامع، حتى من لا يفهم العربية، فإن لكلماته و نظمه و مده وغنه و نهاية فواصله و وقفه ما يسترعي من لا يفهم العربية، و ما ذاك إلا لكون الموسيقى لغة العواطف. يقول الغزالي عن سبب ركون النفس و تأثرها بالنغم الحسن، " و وجه استلذاذ الروح النغمات؛ أن العالم الروحاني مجمع الحسن و الجمال، و وجود التناسب في الأكوان مستحسن قولا و فعلا... فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة و الألحان المتناسبة تأثر به لوجود الجنسية... ووجه آخر: إنما يستلذ الروح النغمات؛ لأن بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفي"[2].

و الرسالة الأدبية و الدينية للقرآن الكريم لا شك يتحقق مفعولها بفعل الإيقاع المحرك لنوازع و دقائق النفس، و الغزالي كان على وعى كبير بأهمية إيقاع ما يلقى في إثارة انفعالات المتلقي، لعلمه أنه

[1] - ابن الجزري، أبو الخير محمد ابن محمد الدمشقي: النشر في القراءات العشر، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1998م، ص168-169.

[2] - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج5، ص 154.

" بقدر تناغم مضمون الرسالة الشعرية مع روح المتلقي؛ بقدر ما يكون التأثير النفسي محكما و قويا لديه"[1].

و من الحق أن يقال دون تردد انه لم يعرف التاريخ كتابا قارب القرآن في قوة تأثيره في القلوب و العقول مع براءته من التناقض و الاختلاف.

إن الإيقاع له من مبلغ التأثير على النفس و سياستها ما جعل القرآن موظفا له حتى في أثناء الأحاديث التي تتناول الجوانب العلمية، كالحديث عن خلق الإنسان والجبال و مظاهر الكون من رياح و أمطار و غيرها، و من ثم يكون للإيقاع حضوره الدائم إلى جنب أنواع الإعجاز المختلفة، و في مقدمتها الإعجاز النفسي التأثيري للقرآن.

[1] - محمد حرير: جمالية التلقي في القرآن من خلال بحوث الإعجاز، بحث دكتوراه، إشراف: د. حبيب مونسي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2006/2005م، ص 69.

المبحث الأول:المظهر البسيط للإيقاع القرآني

1- أصوات الحروف في اللغة العربية:

إن البحث في جماليات النص القرآني من الناحية الجمالية الأدبية لا يعدو كونه كشفا لخصائص الاستعمال الرباني للغة العربية على مستوى كافة أصعدتها، بداية من الحروف التي هي أساس البناء لهذا الهيكل العظيم إلى ألوان عديدة من وسائل اللغة كالصرف و البلاغة و البيان و النحو.

و إذا كانت اللغة كما حدها ابن جني " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، فإن أول هذه الأصوات الحروف التي من خلالها تميز السبك القرآني عن بقية النصوص البشرية، في استعماله لها بطريقة أذهلت منذ أول ظهوره العرب، و قد كانوا خبروا اللغة و أفانينها و قوالبها.

و الجانب الصوتي مراعاً جداً في القرآن، و منه " تبرز أهمية علم الأصوات في مجال خدمة القرآن الكريم؛ في معالجة الحروف من حيث مخارجها و صفاتها، والتركيز على إعطاء كل حرف حقه من طلافة التي تميزه عن غيره في أثناء التلاوة، كما يعالج المقاطع العربية و النبر و التنغيم و كل عناصر الأداء السليم بوجه عام"[2].

إن إستكناه الإيقاع القرآني و الوقوف عنده بجلاء يستوجب علينا أن نمارس اللغة نطقا سليما و أداء ممتازا نراعي فيه أحكام الـ حر ف من حيث المخار جو طلافات، ومتى سلمت هذه الأخيرة للحروف فإن الإيقاع لا محالة يظهر لا يحتاج إلى برهان؛ لأن النفس تحسه و تتلذذ به.

و مما لا شك فيه أن تناول خصائص الحروف يفيد في إدراك الإيقاع، و هذا يقتضي منا التعامل مع تقسيمات اللغويين المحدثين منهم

---

[1] - ابن جني: الخصائص، مج1، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،لبنان،ط2، 1424هـ/2002م، ص87.

[2] - السيد عطية بكر: معطيات الدرس الصوتي و ميزته، مجلة كلية اللغة العربية، العدد: 10 ، 1410هـ/1990م، ص 148.

و القدامى، إذ قسموا أصوات اللغة إلى قسمين رئيسيين هما: اصلوامت و اصلوائت. و معيارهم في التفرقة بين القسمين مخارج الحروف و صفاتها و درجة الوضوح، " و ينبني هذا التقسيم على طبيعة الأصوات و طريقة نطقها أكثر مما يركز على مواضع النطق، كما يركز على خاصيتين أساسيتين:

1- وضع الوترين الصوتيين من حيث تذبذبهما أو عدمه.

2- طريقة مرور الهواء في الآلة المصوتة من المزمار حتى خارج الفم مرورا بالحلق و تجويف الفم و الأنف"[1].

و ما دام الغرض من إيراد هذه الجزئية التنبيه إلى أن الأصوات أو الحروف العربية تتمايز فيما بينها بأصواتها، فإننا سنكتفي اختصارا بأهم التقسيمات، و التي تجمع عليها جل الدراسات الصوتية و الابحاث اللسانية.

ا- الصوامت:

يسميها القدامى من علماء اللغة العربية الحروف، معتمدين في تقسيمها على مخارج الحروف[2]، أما المحدثين من أهل اللغة فيسميها بعضهم السواكن أو الأصوات الساكنة أو الأصوات الصامتة، و سميت بذلك لأن الصفة الجامعة لهذا القسم" أن مجرى الهواء يعترض في حالة النطق بالأصوات الصوامت اعتراضا كليا أو جزئيا"[3]، فينتج بذلك عن الاعتراض الكلي ما أسموه بالصوامت الانفجارية، وعن الاعتراض الجزئي الصوامت الاحتكاكية[4].

1- الصوامت الانفجارية:

---

[1] - بسام بركة: علم ا لأصوات العام-أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، لبنان، دط، دتا، ص107.

[2] - ينظر. المرجع نفسه، ص112.

[3] - هود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم ، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، دط، 1981م، ص229-230.

[4] - ينظر. بسام بركة: علم الأصوات العام، ص107. و محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص332-333.

و تسمى أيضا الأصوات الانسدادية[1]، و كانت تسمى عند المتقدمين بالأصوات الشديدة لقوتها في موضعها و ملازمتها إياه و منعها للهواء أن يجري معها أثناء النطق بها، و يتكون هذا الصوت من " احتباس (انسداد) في الهواء على مستوى الجهاز الصوتي و يليه انفجار"[2]، فيخرج الهواء محدثا صوتا يشبه الانفجار؛ لذلك سميت انفجارية.

و الصوامت الانفجارية في اللغة العربية الفصحى هي: الباء، التاء الظاء الضاد والكاف و القاف و همزة القطع[3].

2- الصوامت الإحتكاكية:

يصطلح المتقدمون عليها الأصوات الرخوة، و هي عكس الأصوات الانفجارية، "لا ينغلق مجرى الهواء أثناء النطق بها انغلاقا تاما، بل يضيق نسبيا بحيث يسمح للهواء بأن يمر به مع احتكاك بجانبيه، فيحدث الهواء نوع من الصفير أثناء مروره بمخرج الصوت، و بحسب نسبة الصفير في الصوت تكون رخاوته، و لذلك فإن أكثر الأصوات رخاوة هي أصوات الصفير"[4]، فالرخاوة إذن كما فهمها الأولون هي الانفتاح الحاصل في الجهاز الصوتي؛ حيث أنه لا ينغلق تماما، و الاحتكاك عند المتأخرين حاصل من ملامسة الهواء للعضوين المحدثين للضيق.

و عليه فإن الصوامت العربية التي يصدق عليها هذا الوصف هي: الثاء، الحاء، الخاء، الذال، الزاي، السين، الشين، الصاد، الظاء، العين، الغين، الفاء و الهاء[5].

و قد أسلفنا الحديث أن التقسيم المعتمد لدى المعاصرين ينبني على خاصيتين رئيسيتين، أحداهما وضع الوترين الصوتين من حيث تذبذبهما أو عدمه، و منه فإن الصوامت أثناء النطق بها قد تحدث التذبذب أو لا تحدثه، و لذلك قسموا الصوامت إلى أصوات مجهورة و

[1] - ينظر. احمد حساني: مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1994م، ص86.
[2] - بسام بركة: المرجع السابق، ص107.
[3] - ينظر. محمود احمد نجلة: المرجع نفسه، ص 332.
[4] - احمد حساني: المرجع نفسه، ص 86-87.
[5] - محمود احمد نجلة،: لغة القرآن في جزء عم ، ص 333.

مهموسة، و إذا كان " الجهر و الهمس قيم أصواتية و صفات تتميز بها الأصوات بعضها عن البعض الآخر"[1] فإنه من الجدير بنا - خصوصا بعد أن كشفت الدراسات و استقرت أن "¾ الكلام تتكون من الأصوات المجهورة"[2]- أن نورد هذا التقسيم.

3- الصوامت المجهورة:

و يعني الجهر في اللغة الصوت الشديد القوي، و قالوا إنما سميت بذلك للجهر بها عند النطق ،من قوتها، و قوة الاعتماد عليها عند خروجها و منع النفس أن يجري معها، و جملة الحروف المجهورة عند المتقدمين هي تسعة عشر حرفا و هي ما عدا الحروف المهموسة.

و مصدر هذا الجهر و القوة في نظر المتأخرين يعود إلى تذبذب الوترين الصوتيين و إهتزازهما عند النطق بالحرف، فيكون تبعا لذلك الصوت المجهور " هو الذي يهز معه الوتران الصوتيان"[3].

و الأصوات المجهورة في اللسان العربي هي: الباء، الجيم، الدال، الذال، الراء، الزاي، الضاد، الظاء، العين، الغين، اللام، الميم، النون، و الواو و الياء[4].

4- الصوامت المهموسة:

و سُميت بهذا الاسم لضعفها، و ضعف الاعتماد عليها عند خروجها و جريان النفس معها، وهي عند القدامى عشرة، جمعها أصحاب القراءات و التجويد في عبارة: "فحثه شخص سكت".أما عند المحدثين فهي: التاء، الثاء، الحاء، الخاء، السين، الشين، الصاد، الطاء، الفاء، القاف، الكاف.

و قد أفاض علماء الأصوات في تقسيماتهم للأصوات حتى أن بعض الأصوات تتداخل من تقسيم إلى آخر بين المتقدمين و المتأخرين و عند المتأخرين أنفسهم.

---

[1] - عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، دار صفاء، الأردن، دط، 1998م، ص 118.
[2] - المرجع نفسه، ص 121.
[3] - احمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط2، 1994م، ص 81-82.
[4] - احمد حساني: مباحث في اللسانيات ، ص 88.

ب- الصوائت:

المراد بالصوائت؛ حروف المد الستة، التي تحدث عندما يخرج النفس من الجهاز الصوتي بصفة حرة دون أن يعترضه مانع أو حاجز، و حروف المد الستة منها ثلاثة طويلة؛ و هي: الألف و الواو و الياء، و ثلاثة قصيرة؛ هي الحركات الثلاث: الفتحة و الضمة و الكسرة[1].

و منطلق دراسة الحركات في معرض الحديث عن الصوائت؛ هو ما ذهب إليه العلماء من أهل اللغة من أن الفتحة بعض الألف و الكسرة بعض الياء و الضمة بعض الواو، يقول ابن جني في الخصائص: " إن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمي الضمة الواو الصغيرة، و يؤكد ذلك عندك؛ انك متى أشبعت و مطلت الحركة أنشأت بعدها حرفا من جنسها"[2].

و اعتبار العلماء الحركات الثلاث أبعاضاً لحروف المد و اللين كون مخارجها من نفس مخارج تلك الحروف، إلا أن الاختلاف الواقع بينها في مقدار مد الصوت، فهو في الحركات اقصر زمنا منه في حروف المد.

2- تآلف الأصوات:

الإيقاع في المتن القرآني يتجلى من داخل العبارة، حيث الرصف الحسن والتناسب بين الحروف في الكلمة الواحدة نطقا و مخرجا، و بين الكلمات بالجملة، فتظهر متآلفة متلائمة مع بعضها، و هذا التلاؤم " يقع في الكلام على أنحاء منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها و ائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج مترتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة و تشاكل ما"[3]. فتكون الحروف بداية الباعث على الائتلاف الصوتي للنص و حسن إيقاعه.

---

[1] - ينظر: احمد حساني: المرجع نفسه، ص 76.
[2] - ابن جني: الخصائص، ج2، ص98.
[3] - مراد عبد الرحمن مبروك: من الصوت إلى النص، ص67.

و لئن كان العلماء ممن تحدثوا عن قبح الألفاظ و حسنها قد قرروا أنّ البعد الشديد في المخرج أو القرب الشديد في المخرج بالنسبة للحروف المشكلة للفظ من دواعي التنافر، فقد ضربوا هم أنفسهم أمثلة لحروف حسن اجتماعها في القرآن، مع قبح اجتماعها في الكلام العادي، كاجتماع الأحرف المتماثلة في الأمثلة الآتية[1]:

الحاء مع الحاء: قوله تعالى: "وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ"[2]، و قوله تعالى: "إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً"[3].

الحاء مع الهاء: في الآية: "وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ إِدْبَارَ لسُّجُودِ"[4]، و في الآية: "مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً"[5].

الكاف مع الكاف: قوله تعالى: "فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ"[6]، و قوله أيضا: "وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا"[7]، وقوله: "مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ"[8]، و قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ"[9].

القاف مع الكاف: قوله تعالى: "فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ"[10]، وقوله: "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً"[11].

القاف مع القاف: قوله تعالى: "فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ"[12].

و حيث أن لكل حرف جرسه الخاص الذي يميزه عن باقي الحروف؛ فإن المجاورة بين هذه الأصوات ينجم عنها كثير من التغييرات، بدءا من فقدان الحرف لجرسه إلى تأثره بما يجاوره بفقدان بعض خصائصه، إلى سيطرته التامة على الأصوات المجاورة له، " و تختلف الأصوات في درجات تأثرها بما يجاورها من أصوات في

---

[1] - عبد الله الجيوسي: التعبير القرآني و الدلالة النفسية، ص 237/236.
[2] - سورة البقرة، الآية 235.
[3] - سورة الكهف، الآية 60.
[4] - سورة الطور، الآية 49.
[5] - سورة الإنسان، الآية 26.
[6] - سورة البقرة، الآية 200.
[7] - سورة طه، الآية 34
[8] - سورة المدثر، الآية 42.
[9] - سورة الإنشقاق، الآية 06.
[10] - سورة الشعراء، الآية 63.
[11] سورة الجمعة، الآية 11.
[12] - سورة الأعراف، الآية 143.

المخرج والكيفية، و تؤدي الاهتزازية للأوتار الصوتية الجهر-الهمس، الهمس-الجهر، والغرض من هذا التقارب التيسير في مجريات العملية النطقية، و كذلك الاقتصاد في الجهد العضلي المبذول أثناء عملية النطق"[1]، و هذا سر يضاف إلى أسرار الإيقاع القرآني، وهو توفيره للطاقة المبذولة في إحداث عملية النطق و إصدار الأصوات، فهو مع كونه لا تمله الأسماع لإيقاعه، لا تكل منه الألسن أيضا لسلاسته و لذاذته.

و ما دامت " أصوات الحروف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب و وجه في التأليف؛ حتى يمازج بعضها بعضا و يتآلف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها و تجتمع صفاتها و يتكون منها اللحن الموسيقي "[2].

و تبدو حروف القرآن كله متآلفة متفقة الأجراس متناسبة، لا تجد في الإيقاع الناشئ عنها انكسارا، و لا عجب في ذلك؛ فأنت إن " طرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحصحة فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها و ترتيب أوضاعها فيما بينها، هذا ينقر و ذاك يصفر و ثالث يهمس و رابع يجهر و آخر ينزلق عليه النفس و آخر يحتبس عنده النفس و هلم جرا "[3]، هذا بعد أن يفأجأك إيقاعه و أنت تسمعه من بعيد من غير تمييز لحروفه و حركاتها.

و يقول البوطي في الاتساق اللفظي للآية القرآنية و إيقاعها الداخلي: " لا بد أن تجد الجملة القرآنية مؤلفة من كلمات و حروف ذات أصوات يستريح لتآلفها السمع و الصوت و النطق، و يتكون من اجتماعها على الشكل الذي رتبت عليه نسق جميل ينطوي على إيقاع خفي رائع، ما كان ليتم لو نقصت الجملة كلمة أو حرفا، أو تلف ترتيب ما بينها بشكل من الإشكال "[4]، و القرآن بهذا خرق كل قوانين

[1] - عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص 290.
[2] - الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، ص176.
[3] - عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص103-104.
[4] - رمضان البوطي: من روائع القرآن، ص144.

الإيقاع التي تعارف عليها الدارسون من تناسب في أزمان الأصوات و تكرار و ما إلى ذلك.

و هذه الخصائص مع اطرادها في القرآن، إلا أنها في المكي منه تبدو أجلى وأوضح، و لذلك يختار لنا البوطي مثالين يبين من خلالهما هذا التآلف:

أولهما قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَمَارَوْا بِالنُّذُرِ "[1].

ثانيهما قوله تعالى: " فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ "[2].

ويقول معقبا " و تأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها ثم دقق نظرك و تأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة و مع المهموسة و المجهورة و غيرها "[3].

و هذا ما يجعل " ترتيب حروفه باعتبار من أصواتها و مخارجها و مناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس و الجهر و الشدة و الرخاوة و التفخيم والترقيق و التفشي و التكرير و غير ذلك "[4] باعثاً على تساوق النظم و إشعاع الإيقاع منه.

و اللغويون يمجون الكلمات التي تقل حروفها عن ثلاث أو تزيد عنها، و يرون الرشاقة و الحسن فيما قل عدد حروفه، و في هذا يقول الإمام فخر الدين الرازي في فصل عقده لما يحصل للكلام من المحاسن بسبب آحاد الحروف؛ يقول في الكلمات المستحسنة " أن تكون متوسطة في قلة الحروف و كثرتها، فأما الحرف الواحد فليس بمفيد أصلا، و أما المركب من حرفين فليس أيضا في غاية العذوبة، بل البالغ فيها الثلاثيات لاشتمالها على المبدأ و الوسط و النهاية، و السبب فيه أن الصوت تابع للحركة ...أما الرباعيات و الخماسيات فلا

[1] - سورة القمر، الآية 36.
[2] - سورة القمر، الآية 11-14.
[3] - رمضان البوطي: المرجع السابق، ص 144.
[4] - الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، ص177.

يخفى ثقلها، و السبب فيها الزيادة على الدرجات الثلاث التي يتعلق بها كمال الصوت "[1].

غير أن الائتلاف الصوتي في القران الكريم يجعل من الكلمة التي قد ترى في نظر النقدين مستكرهة؛ يجعلها براقة وسط النظم، تبعث إيقاعها حتى ليكاد يكون اظهر إيقاع من إيقاعات النص الأخرى. فكلمة « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم » من قوله تعالى«وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ »[2] مكونة من عشرة أحرف ومع ذلك لا تحس لها ثقلا، وكلمة « فَسَيَكْفِيكَهُمُ » من قوله تعالى « فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »[3] من تسعة أحرف ولا تحس لها ثقلا بل عذوبة، ذلك أنه قد ترد في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه ولكنها بتلك الطريقة ... قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفها تركيباً"[4].

3- تكرار الصوت المفرد:

تتَّخذ اللغة القرآنية من الحرف وسيلة من وسائلها لإحداث الإيقاع، المصور أحيانا للموقف والموحي بالمعنى أحيانا أخرى، " معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية، وما تشيعه بحرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد"[5]، والتآلف الصوتي مع إسهامه في إنشاء الإيقاع بالعبارة أو الجملة القرآنية، إلا

[1] - الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط1، 1985م،ص125.
[2] - سورة النور، الآية 55.
[3] - سورة البقرة، الآية 137.
[4] - الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، ص 188.
[5] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص 347.

أنه يبقى إيقاعا طبيعيا في النص، يتنوع حسب الطرق المستعملة، والقرآن في تنويعه لإيقاعه يعمد إلى تكرار صوت أو مجموعة أصوات تتوزع على امتداد الصورة أو جزء منها، تاركة أثرها وبصمتها الخاصة على الإيقاع العام .

إن من شأن تكرار الحرف في الكلام على فترات متقاربة أن يكسب الأ سلوب إيقاعية، والكلام والصوت نغماً يبهج له الوجدان السليم ويطرب له، بل و بوجه عام يكون له أثره في المتلقي فـ" كرار حروف معينة في كلمة ما في بعض الأساليب رمزا لغويا له إيقاع جمالي بصير جملة من الانفعالات النفسية من خلال الإيحاءات التي يومئ إليها هذا التكرار و الأحاسيس التي يثيرها"[1].

وإذا ما حاولنا استقراء نصوص من القرآن المكي، فإننا نجد هذا ا لكرار للصوت المفرد على ضروب، فأحياناً نجد الحرف وحده يتكرر خلال الآية الواحدة، وأحياناً بين الآيات مجتمعة. وهذا ديدن الأساليب العربية التي جرت عليها الأقلام وتجري عليها، إذ نجد المتنبي يقول:

وَمَنْ عَرَفَ الأيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وبِالنَاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ[2]

و المتأمل في هذا البيت للمتنبي، يقرع أذنه صوت الرأي على إمتداد البيت ست مرات، اثنتان في الصدر، وأربع مرات متوالية في العجز، ومع وضوح هذا النغم المنبعث من صوت حرف الراء يجب أن لا نحسب أ ن ا لشا عر ما فعل ذ لك عن قصد، وإنما خروجاً من أسر وزن البحر ورتابته ، أراد أن يوصل لنا بالإيقاع الذي صاغه ويصور لنا " العاطفة العنيفة التي يحملها ... من الحقد و الإنتقام والقسوة والتشفي"[3]، في كلمات تشي بمعناها، " حتى ليخيل إلينا أن هذا الرمح يزداد إيغالا في الحرج مع كل راء من الراءات الأربعة"[4].

---

[1] - صفاء محمد ضياء الدين: تجليات الإيقاع في تكرار الحرف العربي،موقعwww بتاريخ رمضان 1427هـ.

[2] - المتنبي: الديوان، دار صادر، بيروت،ظ3، 1424هـ/2003م، ص76.

[3] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص 345.

[4] - محمد النويهي،: الشعر الجاهلي، نقلا عن: محمود احمد نجلة:المرجع نفسه، ص345.

إن كانت اللغة العربية اكتسبت صفتها الموسيقية منذ عهودها الأولى، فإنه لن يكون غريبا علينا في هذا المبحث أن نعد تكرار الصوت المفرد أصلا من أصول الإيقاع في النصوص الأدبية.

إن القانون العام للإيقاع يحكم أن لا إيقاع إلا بانتظام وتغير وتساوي وتوازن وتكرار وتناسب، وكلها عناصر جمالية ينطلق منها الأدب الرفيع لبلوغ قمة الفنية، فيوظف كل ما في اللغة من طاقات يكمن فيها العنصر الموسيقي كالحرف مثلا.

ويرى النويهي في كتابه الشعر الجاهلي أن " إشتراك الكلمات في حرف واحد من الأول أو الوسط قد يكون له قيمة تنغيمية تزيد من ربط الأداء بالمضمون الشعري"[1]، وما يقال في الشعر ينطبق على النثر، إذ مع اعتماد موسيقى الشعر وقيامها على الوزن والقافية، إلا أن الشعراء حرصوا على الخروج من الجانب الموسيقي البارز (الموسيقى الخارجية) إلى موسيقى أخرى داخل البيت (الموسيقى الداخلية)، وهذا أولى أن يكون في النصوص النثرية .

وغير بعيد عنه نجد امرؤ القيس في معلقته يقول:

مِكَرِ مِفَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[2]

فالميم بلذاتها وتتابعها تشعرنا بإيقاع خاص للشطر الأول من البيت، وتوحي إلينا بمعان عديدة؛ كسرعة الكر و الفر، والإقبال والإدبار، والنشوة واللذة المرافقة للفعل، و منه فـ " لابد للدارس أن يلتفت إلى ما يمكن أن يكون لتكرار الحرف من قيمة ما ... قد تكون دلالية محضة في نص ما أو تنغيمية صرفة في نص آخر أو الاثنين معاً في نص ثالث"[3].

---

[1] - طالب محمد الزوبعي، ناصر حلاوي: البيان و البديع، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1996، ص 147.

[2] - الزوزني: شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف،بيروت، 1414هـ/1994م، معلقة امرؤ القيس.

[3] - طالب محمد الزوبعي، ناصر حلاوي: البيان و البديع ، ص 152.

و القرآن في استعماله اللغوي جرى على سنة العرب، فكرر من الحروف ما كان بالغ الأثر في إيقاع النص، كذا كرر من الكلمات ما وسمت التركيب و العبارات بسمات إيقاعية جعلتها تصل حد الإعجاز؛ إيقاعيا و معنويا وتأثيرا.

4- إسهام الحركات في بلورة الإيقاع:

ليست الحروف والكلمات وحدها المصدر لإيقاعية النص القرآني، إذ أنه يستنفد كل ما في اللغة من طاقات تبعث الجمالية فيه، فلا يقف عند حد الإستعمال المجتزأ الذي جرى عليه البشر، بالإفراط في جانب من جوانب اللغة على حساب الجانب الآخر، أو العناية بالمعاني على حسب الألفاظ، والعكس، بل الكل في القرآن مكتمل، وإن كانت الحروف بأجراسها تسهم في إيقاع النص تشكيلا وتنويعا فإن للحركات أيضا جانب في ذلك، إذ أنها كما وصفوها أبعاض الحروف. يقول ابن جني في سر الصناعة: " إعلم أن الحركات أبعاض حروف المد"[1].

وتأسيسا على مقولة ابن جني لا نستغرب الدور البارز للحركات في تنويع الإيقاعية النصية وإكسابها الطابع الملائم لها، فالكلمات إضافة إلى ما تحمله من معان ودلالات مجردة تتميز بالطابع الموسيقي المتمثل في الحركات والسكنات وحروف المد والحروف التي لا تمد.

ونظرة غير بعيدة فيما كتب عن الموسيقى أو الإيقاعية القرآنية، نجد إجماعا على هذا الدور الهام للحركات، فالرافعي حينما يقول: إن " صلوات الحروف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت"[2]؛ إنما يثبت بذلك دور الحركة في تغيير جرس الحرف، فـ"بَ " ليست هي"بُ " وليست "بِ" وليست هي كذلك" بْ "، ونلاحظ الفرق واضحاً إن خرقنا قواعد اللغة وأجرينا حروف أي كلمة شاءت على حركة واحدة لبان لنا الخلل، وظهر العيب، فالحروف تأتلف أصواتها بإسهام الحركات فبها " يمازج بعضها بعضا، ويأتلف

[1] - ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص 33.
[2] - الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، ص 176.

منها شيء مع شيء فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي "[1].

ولو عدنا إلى الأصل الذي تبنى عليه الألحان الموسيقية لوجدانه حركات وسكنات تتعاقب، يزيدها اختلاف مخارج الحروف فوق ذلك ثراء نغميا. يقول إخوان الصفا" إن تعاقب الحركات والسكنات هو الأصل الذي تبنى عليه الألحان الموسيقية والأوزان الشعرية، فإنه يرون بشكل مجمل أن تعاقب الحركات والسواكن في الشعر متمثل في الحروف الساكنة والحروف المتحركة هو الذي يكون الأسباب والأوتاد والفواصل التي تنشأ منها التفاعيل التي تتركب منها المصاريع المكونة للأشعار"[2]، وما يقال عن الشعر يسحب على النثر خصوصا الفني منه، المراعي للموسيقى والصور والخيال وغيرها من الوسائل الفنية.

ومنه علينا أن نسلّم بدور الحركات في القرآن؛ لأن " النص – فيه – من أوله إلى آخره سورة واحدة، كل لون له دور، وكل فراغ يؤدي معنى، وكل حركة لها ترجمتها، وكل صمت له نطقه، وبلاغته وكل مساحة لها تعبيرها الخاص "[3]، وهكذا يكون لإختيار نوع من الحركات في المكان المخصوص دلالته التي تبدو وقد تخفى، عَلِمها من عَلِمها وجَهلها من جَهلها؛ خصوصا وأن الدراسة البلاغية الأدبية ذوقية أكثر منها موضوعية، فهي بالتالي تعتمد على قدرة المتلقي على الولوج داخل النص واكتشاف الروابط المنشئة له.

و يجمع دارسوا اللغات على موسيقية اللغة العربية، وأنها لغة شاعرة كما وصفها العقاد، الذي يقول: " إن التركيب الموسيقي أصل من أصول هذه اللغة لا ينفصل عن تقسيم مخارجها، ولاعن تقسيم أبواب الكلمات فيها، ولا عن دلالة الحركات على معانيها ومبانيها"[4]، فكما أن للحروف بمخارجها إسهام في موسيقية اللغة، وللأوزان

---

[1] - المرجع نفسه، ص 176.

[2] - إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء، دار بيروت، لبنان، دط، 1376هـ/1957م.

[3] - عباس بيومي عجلان: الأداء الفني للنص، ص204.

[4] - العقاد: اللغة الشاعرة، نقلا عن: عيش العربي: خصائص الإيقاع الشعري، دار الأديب، وهران-الجزائر، دط، 2005م، ص 84.

الصرفية دورها المماثل، فكذلك للحركات دورها الموسيقي، إذ ما اكتسبت اللغة العربية موسيقيتها إلا من استغلالها تلك الطاقات الكامنة فيها، مستفيدة من كل حركة و سكون و من كل حرف أو تركيب.

يقول محي الدين رمضان: "ومن حيث صلة هذه الحركات بالموضوع فإنها تمد الكلام وتراكيبه بألوان من الأنساق الموسيقية المتناسبة فيأتلف الكلام أصواتاً وألفاظاً و صيغاً و تراكيباً، وا لحركات بعض الأصوات" [1]. وهذا في معرض حديثه عن مصادر الموسيقى في العربية، فهو يعد الحركات مصدر من مصادر الموسيقية، خصوصا مع اقترانها بالحروف؛ لأن هذه الأخيرة والتي يسميها علماء الأصوات الصوامت لا يمكن نطقها نطقا سليما إلا بوجود الحركة التي يسمونها الصائت، قصيرة كانت أو طويلة .

و يقول محمد المبارك في كتابه "فقه اللغة وخصائص العربية" بعد عرضه للوظائف المعنوية للحروف الهوائية؛ المتمثلة في أحرف المد و الحركات، أن لهذه الأخيرة وظيفة فنية صوتية أو وظيفة موسيقية كما أسماها، فيقول: " إن هذه الحروف هي التي تفسح المجال لتنوع النغمة الموسيقية للكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة لسعة إمكانياتها الصوتية و مرونتها" [2].

أما عن الحروف وصفاتها فقد بينا مالها من دور في موسيقية الكلمة والإيقاعية القرآنية بوجه عام؛ أما الحركات والسكنات فيمكن القول بأن" الحركات الثلاثة الضمة والفتحة والكسرة وتتابعها في الكلمة أو الكلمات؛ أو الإنتقال من حركة إلى أخرى كالإنتقال من الكسرة إلى الضمة أو العكس، أو جريان هذه الحركات دون أن يعترضها السكون، أو تكرار السكون على فترات منظمة أو مختلفة، كل ذلك له أثر في

[1] - رمضان محي الدين: وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن، دار الفرقان، ط1، 1402هـ/1982م، ص39.

[2] - محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، لبنان، دط، 1426هـ-2005م، ص 256.

جرس الكلمات والعبارات ..."[1]، وهذا يسهم بالتالي في بلورة الإيقاع الخاص بالعبارة، و منها إلى الجملة، فالسورة عموما.

وإذا تتبعنا الإيقاع في أي نص أدبي، نجده في مستواه الأول يتشكل من تناسق وانسجام الحروف بصفاتها ومخارجها، إضافة إلى حركاتها، ومنه تتكون النغمة الصوتية الأولى، ولو أنا فرضنا انعدام الحركات عموما أو وجود نوع واحد منها فإننا لا نحصل إلا على موسيقى من أجراس الحروف لكنها في طبقة واحدة – هذا إن أمكن وجودها، وسر الموسيقى يكمن في ذلك العلو والإنخفاض والتذبذب للأصوات، لأن " الروابط بين الحروف؛ صفة ومخرجا وحركة، تكسبها صفة السهولة والعذوبة والفصاحة، وهذا النوع في بناء الحروف وعلاقاتها يحقق وحدة صوتية متناغمة منسجمة "[2].

ومن بين ما يعول عليه القرآن في إحداثه للتأثير جانبه الموسيقي الإيقاعي، لذلك جاء مؤتلفا في كافة مستوياته، ففضلا عن تآلف حروفه وكلماته جاءت مداته وغناته وحركاته وسكناته على نفس الدرجة من التآلف، وشاهد هذا " أن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة – ويعني صوت المجود الذي يكون بعيدا بحيث لا يثبت عند السامع جرس الحروف وأصواتها – يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية فضلا عن أن يعرف حروفها بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عُرف من توقيع الموسيقى وتَرنيم الشعر "[3].

ويؤكد محمد عبد الله دراز ما ذهبنا إليه من تعويل القرآن على جانبه الإيقاعي، فيقول: "إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، و وزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به

[1] - عبد الحميد حسن: الأصول الفنية للأدب. نقلا عن: الخالدي، عبد الفتاح: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص95.

[2] - عبد السلام احمد الراغب: الدراسة الأدبية ، دار القلم العربي ، سورية، ط1، 1425هـ/2005م، ص80.

[3] - الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن. ص447.

وتهادي النفس فيه آنا بعد آن"[1]، ليتأكد بذلك الإعجاز الموسيقي أو الإيقاعي للقرآن الكريم إلى جانب أنواع الإعجاز الأخرى .

إننا حينما ننظر إلى لغة القرآن نظرة الكمال ونظرة السلامة- ولا منظار لنا غيره – وأن من وضعها هو الله، فإننا نعمل للحرف حسابه وللحركة حسابها ولكل كلمة حسابها، لأن واضعها متعال عن اللغو والعبث، ولا تضطره السياقات أو المعاني أو مراعاة الجانب الصوتي لإقحام ما لا فائدة من وجوده، "و أمعنْ إن شئت في تآلف الحركات والسكنات و المدود وتعاطفها مع بعضها، فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قدر تقديرا بعلم اللطيف الخبير وهيهات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة"[2].

ولعله من الطبيعي والبديهي أن تكون حركات القرآن بتلك المكانة من التآلف، إذ لا سبيل إلى العرب وهم من هم في البيان واللسان إلا بمثلهما، وقد علمنا مبلغهم في كل ذلك، خصوصا الشعر الذي وصلنا منه الكثير لا عتماده وقيام بحوره التي كانوا ينسجون عليها أشعارهم على مبدأ تداول الحركة والسكون، وكذلك قيام المقاطع اللغوية الصوتية على ذات المبدأ، وهذا ما يفسر قولهم منبهرين ومشدوهين من النص القرآني أنه شعر .

وقولهم عن القرآن شعر إنما تأت لهم بحكم اللغة، لأن لغة القرآن هي العربية بحروفها وتراكيبها لم يخرج عنها بشيء جديد، " واللغة بما لها من ناحيتين أساسيتين هما ناحية اللفظ وناحية المعنى، لها أيضا تلك الطابع الموسيقي بما تشمل عليه الكلمة من حركات وسكنات وحروف مد وحروف لا تمد"[3]، وكل هذه العناصر وغيرها تترك النفس متأثرة بمؤلف متنوعة، وهو المقصد الذي جعل الله من أجله القرآن في تلك الحلة.

---

[1] - عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص103.
[2] - رمضان البوطي: من روائع القرآن، ص144-145.
[3] - صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص27.

ولئن أجملنا القول في دور الحركات في الإيقاعية القرآنية لاستأنسنا بمقولة الرافعي، وهو من الذين كتبوا في موسيقية اللغة القرآنية، وكان لهم السبق في ذلك، يقول: " لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض ويساند بعضا، ولن نجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف متساوقة لها في النظم الموسيقي "[1]، وهذا التآلف والتساوق يجعل التعبير سهلا ميسورا غير ثقيل و لا نابئ، يقول الرافعي مستطردا: " حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كانت فلا تعذب ولا تستساغ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي أُستعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد مهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي"[2].

فالحركات إذن لها وظيفتين إيقاعيتين، فهي ذاتها مكون إيقاعي بما تحمله من شحنة صوتية؛ و إن كانت تقل عنها في الحرف، و من ناحية أخرى تمهد للحرف لأداء دوره الإيقاعي.

[1] - الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 186.
[2] - المرجع نفسه، ص 186-187.

المبحث الثاني: المقاطع الصوتية في الإيقاعية القرآنية

تمهيد:

في غضون تحدثنا عن الإتلاف الصوتي ذكرنا أن الكلمة التي تبدو مستوحشة في على مقاييس الناقدين نجدها في القرآن مستساغة تؤدي وظيفتها في النظم دون إخلال بالمعنى و لا كسر للإيقاع، و لعل ذلك يعود إلى الخاصية التعبيرية الفنية التي يمتاز بها النظم القرآني؛ من رصف للحروف و تناسب بين أصواتها، و يعود أيضا إلى النظام المقطعي الذي نجده في كافة اللغات، غير أن أهميته تختلف من لغة لأخرى.

و اللغة العربية بموسيقيَّتها التي شهد بها الأبناء ممن انكبّوا على اللغة دراسة وتحليلا، و الأعداء من المستشرقين الذين جهدوا أقلامهم لكشف عورات اللغة العربية بحثا عن منفذ من خلاله يطعنون في القرآن، حري بها أن تتخذ من هذا المنبع الإيقاعي وسيلة من وسائلها لإحداث الإيقاع، و لعل ما يجعلنا نحكم بأهمية المقاطع الصوتية في البناء الإيقاعي للغة العربية؛ ما نجده في تعامل القدامى مع الشعر، مع أنهم لم يسموا المقاطع بأسمائها المعروفة عليها في الدراسات الحديثة إلاَّ أنهم عملوا بها، و ما البحور الشعرية إلا توازن للمقاطع الصوتية في البيت الواحد.

و اللغة العربية لغة كمية تعمل للقصر حسابه و للطول حسابه، و شتان بين النص الذي يستمد إيقاعيته من عناصر قصيرة تتكرر على امتداد أزمنة متناسبة أو متقاربة، و بين نص إيقاعيته مستمدة من عناصر طويلة. فاللغة العربية " تتميز أساسا بإيقاعها الكمي، و هو إيقاع ينبني على تداول المقاطع القصيرة و المقاطع الطويلة، و على كون الأولى تمثل مواقع ضعف النطق، و الثانية مواقع قوته في سلسلة التصويت و الإيقاع"[1].

[1] - محمود المسعدي: الإيقاع في السجع العربي، ص 112.

و قد يستساغ أن نتحدث عن أهمية المقاطع في لغة الشعر لأنها فيه أوضح و به الصق، لكن أن يكون ذلك في النثر فقد يبدو تجاوزاً عن حدود الوظيفة المقطعية وتحميلا غير صائب، غير أننا حين نتفق أن الإيقاع كما نجده في الشعر نجده افي النثر، و حين نسمع السيوطي يقول أن " أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض و صناعة الإيقاع، إلا أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم و صناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة"[1]، ندرك ثانية الأهمية الإيقاعية للتقسيم المقطعي.

1- تعريف المقطع و أنواعه:

لم يكن لعلماء اللغة العربية الأقدمون إطلاع أو استعمال لمصطلح المقطع، غير أنهم كثيرا ما تكلموا عن المتحركات و السواكن و عن الأسباب و الأوتاد، و ذلك أثناء ملاحظتهم للواقع الصوتي للغة التي يتعاملون معها.

و يقول احمد أبو زيد في ذلك: "إن مفهوم المقطع الصوتي حديث في الدراسات اللغوية العربية، استفادته من الدراسات اللغوية الأجنبية، و أما القدماء فلم يكونوا يعرفونه، و كانوا ينظرون في نظام الحركات و السكنات، و جرى الخليل بن احمد على تسمية العناصر الإيقاعية للشعر بالأسباب و الأوتاد و الفواصل"[2].

أما المحدثون فيبدو جليا من خلال مقالاتهم المتعددة و المتباينة أنهم لم يقفوا على حد يجمعون كلمتهم عليه، فعسر عليهم بذلك تحديد مفهومه، "فالذين عنوا بدراسة علم الأصوات (Phonétique) لهم تعريفات عديدة، و الذين اهتموا بدراسة علم وظائف الأصوات (Phonologie) لهم أيضا تعريفات عديدة "[3].

أما الإتجاه الفوناتيكي الذي عني بعلم الأصوات فأهم تعريفاته:

---

[1] - السيوطي: المزهر في علوم اللغة و أنواعها، ج2، شرح و تعليق: محمد جاد المولى بك و آخرون، المكتبة العصرية، لبنان، 1408هـ/1987م، ص470.

[2] - احمد أبو زيد،: التناسب البياني في القرآن، ص311.

[3] - المرجع نفسه، ص311.

1- تتابع من الأصوات الكلامية، له حد أعلى أو قمة إسماع طبيعية تقع بين حدين أدنيين من الإسماع.

2- قطاع من تيار الكلام يحوي صوتا مقطعيا ذا حجم أعظم، محاطا بقطاعين أضعف أكوستيكيا.

3- وحدة من عنصر أو أكثر تصاحبها نبضة صدرية واحدة.

4-اصغر وحدة في تركيب الكلمة.

5- و من اللغويين من ركز أكثر على الناحية الفسيولوجية، فعرف المقطع على انه نبضة صدرية، أو وحدة منفردة لتحرك هواء الرئتين لا تتضمن أكثر من قمة كلامية أو قمة تموج مستمرة من التوتر في الجهاز العضلي النطقي أو نفخة هواء من الصدر.[1]

و أما الاتجاه الفونولوجي فأهم تعريفاته:

1- الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر في اللغات المنبورة أو نغمة واحدة في اللغات النغمية.

2- الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها.

3- وحدة تحتوي على صوت علة واحد- واحد فقط- إما وحده أو مع سواكن بأعداد معينة و بنظام معين.

أما الفارابي فعرفه على ضوء التتابعات من الصوامت و الصوائت فيقول: " كل حرف غير مصوت اتبع بمصوت قصير به فإنه يسمى المقطع القصير، و العرب يسمونه الحرف المتحرك من قِبَل أنهم يسمون المصوتات القصيرة حركات، و كل حرف لو يتبع بصوت أصلا و هو يمكن أن يقرن له فإنهم يسمونه الحرف الساكن، و كل حرف غير مصوت قرن به مصوت طويل فإنه يسمى المقطع الطويل"[2].

و تجدر الإشارة إلى أن الاتّجاه الفونولوجي " يعرف المقطع بالنظر إلى كونه وحدة في كل لغة على حدة ...و لهذا فإ ن الاتجاه الفو ولوجي الدقيق لا بد أن يكون خاصا بلغة معينة أو مجموعة من اللغات، و لا

[1] - ينظر: احمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب،القاهرة، دط، 1418هـ/1997م، ص284-285.

[2] - الفارابي: الموسيقى الكبير. نقلا عن: عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص215.

يوجد تعريف فونولوجي عام؛ لأن هذا يخالف الحقيقة المعروفة أن كل لغة لها نظامها المقطعي المعين"[1].

نخلص من كل ما سبق من تعريفات أن النظام المقطعي نظام مشترك بين اللغات، و اللغة العربية إحداها، " تتركب فيها الكلمات من مقاطع و إن كانت أميل إلى المقاطع المقفلة"[2]، و هذه المقاطع المقفلة هي أحد أنواع المقاطع التي تقسم لها أصوات العربية ،ففي حين نجد من اللغويين من يصنف المقاطع اللغوية باعتبارين اثنين:

أولهما : طول المقطع أو قصره؛فاصطلحوا على المقطع الذي لا يزيد عن صوتين اسم المقطع القصير، و المقطع المتوسط على الذي يشتمل ثلاثة أصوات، و المقطع الطويل ما أشتمل على أربعة أصوات.

ثانيهما: نهاية المقطع؛ فاصطلحوا على ما انتهى بصوت صائت المقطع المفتوح، أما المقطع الذي ينتهي بصامت فالمقطع المغلق.

نجد أيضا من يرى أن " المقاطع الصوتية نوعان: متحرك و ساكن، و المقطع المتحرك هو الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل، مثل "بَ " و "بَا"، و اما الساكن فهو الذي ينتهي بصوت ساكن، مثل "مَنْ " ، "لَمْ" ، "قَدْ" "[3].

و من الدارسين من اختار تقسيما ثلاثيا كالتالي[4]:

1- مقاطع قصيرة: مثل "بَ "، "لَ ".

2- مقاطع طويلة: مثل "با"، "لا".

3- مقاطع زائدة في الطول: مثل "لامْ"

هذا التنوع في التقسيمات إن دل على شيء إنما يدل على حداثة الدرس المقطعي في اللغة الغربية، فهم لذلك لم تنضبط مصطلحاتهم، غير أن المتفحص لتلك التقسيمات على اختلافها، يجدها مجمعة على التقسيم الخماسي التالي[5]:

---

[1] - احمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 286.

[2] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص355.

[3] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص 312.

[4] - ينظر. محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم ، ص356.

[5] - الشريف ميهوبي: المقطع الصوتي و بنية الكلمة، ص 169-170.

- المقطع الأول: مقطع قصير مفتوح يتكون من (صامت + حركة قصيرة) ومثاله الفاء أو الحاء من كلمة "فَتَحَ" فهي تتكون من ثلاث مقاطع قصيرة مفتوحة ويرمز لها بـ(ص ح).

- المقطع الثاني: مقطع طويلا مفتوح يتكون من (صامت + حركة طويلة) و مثاله "لا" ، "ما" ، "يا" و المقطعان "كا"و"نا" من كلمة "كانا" و يرمز له بـ(ص ح ح).

- المقطع الثالث: مقطع طويل مغلق و يتكون من (صامت + حركة قصيرة+ صامت) ومثاله "لم" ، "لن" و المقطع "جب" من كلمة "رجب" الموقوف عليها و يرمز له بـ(ص ح ص).

و يلعب الوقف دورا بارزا في إحداث أنواع أخرى من المقاطع الصوتية فتبعا لتكون الكلمة الموقوف عليها ينتج المقطعان الرابع و الخامس.

- المقطع الرابع: مقطع مديد مقفل بصامت و يتكون من (صامت + حركة طويلة +صامت) و مثاله "ريم"، "عيد"، "كان" الموقوف عليها، و يرمز له بـ(ص ح ح ص).

- المقطع الخامس: مقطع مديد مقفل بصامتين و يتكون من (صامت + حركة قصيرة + صامتان) و مثاله "بَكَرْ"، "ذِئبْ"، " فِكِر" الموقوف عليها.

و يؤكد عبد الصبور شاهين أن " المقاطع الثلاثة الأولى هي التي تتكون منها كلمات العربية في الكلام المتصل بنسبة 99% من الكلمات و لا بد لكل كلام عربي أن ينتهي في التحليل الأول للصيغ إلى هذه المقاطع كلها أو بعضها "[1].

أما المقطعان الرابع و الخامس فقليلا الوقوع في العربية " غير ان في العربية كلمات تضمنت مقطعا من النوع الرابع في وصل الكلام، و هي قليلة الاستعمال نسبيا مثل " الضالين" و " اطلاقات" و " الحاقة" في القران الكريم"[2].

---

[1] - عبد الصبور شاهين،: علم اللغة العام. نقلا عن: الشريف ميهوبي: المقطع الصوتي و بنية الكلمة، ص169.

[2] - المرجع نفسه، ص 170.

و هناك من الدارسين من اجتهد فوق ذلك و أضاف أنواع أخرى من المقاطع[1]، و أيا كانت أنواع هذه المقاطع فإن ما يهمنا منها بالدرجة الأولى وظيفتها الإيقاعية.

2- الوظيفة الإيقاعية للمقاطع:

لا معنى للحديث عن المقاطع و أنواعها دون الحديث عن الوظائف التي تؤديها هذه المقاطع، و ما اختلاف علماء الأصوات في إيجاد تعريف واحد للمقطع إلا لـ"اختلاف الرؤى حول الوظيفة الكوستيكية الفيزيائية أو الوظيفية أو النطقية للمقطع، و مع ذلك هم يتفقون على أهميته في الدراسة الصوتية باعتبار كلام الإنسان عبارة عن مقاطع صوتية"[2].

و لئن أسلفنا فيما مضى من الدراسة أن الإتلاف الصوتي بين الحروف في الجملة القرآنية و تكرار الأصوات المفردة باعثا على إحداث أنواع من الإيقاع الداخلي بروعة و حلاوة، فقد آن لنا أن نوضح "أن هناك مصدر آخر لتلك الروعة أو الحلاوة التي يمتاز بها القرآن، هذا المصدر؛ هو تناسب المقاطع الصوتية التي يتألف منها النظام الزمني أو الإيقاعي للآيات، لأن الحلاوة في المسموعات لا توجد إلا مع وجود التناسب في تآلف المقاطع الصوتية"[3].

و من هنا ندرك أنه " لما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة و كان لكل مقطع سماته الصوتية المتميزة، كان ترتيب هذه المقاطع في الكلمات و تواليها على نسق معين ذا اثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الداخلية، تتناسب و الأفكار التي تعبر عنها و تصورها"[4]، فإلى جانب الوظيفة الإيقاعية للمقاطع نجدها تؤدي وظيفة المساهمة في تقريب المعاني و إبانتها.

---

[1] - احمد مختار عمر،: دراسة الصوت اللغوي، ص 299-305.

[2] - أمينة طيبي: الدراسة فوق التشكيلية عند الفلاسفة المسلمين، مجلة التراث العربي، العدد:98، السنة: 25، ص144.

3 - احمد أبو زيد،: التناسب البياني في القرآن ، ص315.

[4] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص357.

و منه نخلص إلى أن للمقاطع وظيفة في النص تتمثل في إسهامها بتناسبها في إحداث و تنويع الإيقاع الداخلي للنص، و هذه الخاصية في اللغة العربية أكثر ما نجدها في الشعر،و قلّ ما نجدها في النثر، غير أن النص القرآني بإيقاعيته المتميزة وتوظيفه لكل ما في اللغة من طاقات مع كونه ليس شعرا، إستطاع في معماريته الرائعة أن يوظف هذا المصدر الإيقاعي أيما توظيف، إلى درجة أن لبس على كثير ممن لا يفقهونه. فاعتقد من إعتقد أنه على أعاريض الشعر يخضع لها و يتزيا بزيها، و في ذلك يحكى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ "[1]، فقال الأعرابي: كسرت، إنما قل: يا أيها الناس اتقوا ربكم زلزلة الساعة شيء عظيم، ففطرته اللغوية جعلته يحس الانكسار في الإيقاع والاختلال في ترتيب المقاطع لأن ما ظنه الأصح يتوافق مع وزن بحر السريع.

3- إستخدام المقاطع في الإيقاع القرآني:

القرآن الكريم في إعجازه الممتد على مر العصور لم يدع لطاعن موضع شبهة يقف عندها لتتحقق له شهوته و نزوته في الطعن في سلامته، و رغم ما استجد من دراسات لغوية و أدبية نجد القرآن يقف شامخا يحتل الصدارة في كل تلك الدراسات، و لا عجب في ذلك؛ فهو من عند العليم الخبير.

و على حداثة الاهتمام بالمقاطع الصوتية في الدراسات الحديثة؛ نجد القرآن يستخدم المقاطع الصوتية إستخداما تنقطع دونه السبل، و تقف دونه الغايات، فبراعة و فنية تتجلى من خلال الإيقاعات المتعددة التي تظهر في السورة الواحدة، و تبعا لتنوع هذه الإيقاعات تتنوع المقاطع المستعملة معها.

و القرآن يقصد إلى استخدام مقاطع مخصصة في مواضع مخصصة يعدل عنها إلى غيرها متى إقتضى المعنى ذلك أو السياق، حتى لو أدى ذلك إلى تغيير نوع الفاصلة أو حرفها، عكس الشعر الذي يفرض نوع المقطع فيه نفسه على الشاعر .

[1] - سورة الحج، الآية 01.

و ارتباط المقاطع في ظاهرها بالشعر يجعلنا نستقرأ ما جاء في القرآن على أوزان الشعر، لأن فيها تناسبا للمقاطع الصوتية، و هذا "التناسب في ترتيب المقاطع في نظم الآية القرآنية أو في جزء منها يصل إلى أن يتفق مع وزن من أوزان الشعر العربي المعروف"[1].

و إذا كان "توفيق الشاعر أو الأديب في اختيار المقاطع المناسبة لنوع العاطفة وتموجها عنده، و تغير هذه المقاطع مع تغير نوع العاطفة، و هو توفيق يصل إليه بخبرته الفنية و حسه البياني"[2]، و قد يخونه ذلك و لا شك، فإنا نجد القرآن في إختياره يبلغ قمة الفنية، من غير تكلف أو تفريط في جانب من الجوانب الفنية الأخرى؛ لأن النص ليس مجرد تراكم للمقاطع الصوتية تنقطع فنيته عندها، و إنما هو كل تتواشج فيه العناصر مجتمعة لإحداث الأثر الفني.

و لعلنا في ذلك نجاري الشهاب الخفاجي حين إحساسه بالإيقاع القرآني ينبعث من تناسب المقاطع، إذ "لم يستطع الإشارة إليه على علاته و إنما انتقى من العبارات القرآنية ما أمكن أن يطوعه للوزن الشعري، أما الإيقاع الذي يستعصي على الوزن فلم يكن في طوقه أن يكشف عنه أو يشير إليه"[3].

فبنى بذلك الخفاجي منظومته الشعرية معتمدا فيها على ما توافق مع أوزان البحور من آيات، فيقول محددا كمية بعض البحور كالطويل و البسيط و المديد و المتقارب:

بحر الطويل:

أَطَــالَ عَزَولــي فِيــكَ كَفرَانــهُ مَنْتَ يَا ذا الظَّبيِ فَأنَسْ و لا تَنْفُرْ الْهَوَى

فعولــــن مفـــاعيلن فعولـــن "مَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفرْ "[4][5].

مفاعلن

و من الآيات التي وافقت الطويل أيضا :

---

[1] - احمد أبو زيد،: التناسب البياني في القرآن ، ص317.

[2] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص 357.

[3] - تمام حسان: البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية و أسلوبية للنص القرآني)، عالم الكتب، مصر،ط1، 1413هـ/1993م، ص 267.

[4] - سورة الكهف، الآية 31.

[5] - تمام حسان،: المرجع السابق، ص 268.

قوله تعالى: "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ "[1].

و قوله تعالى: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ "[2] موافقة لمجزوء الطويل.

تلاقيطُولِ الْوَصل نَفسُ مُتَيَّمٍ ورُ الدَّيَاجي و النُّجومُ سَمِيْرَاه
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن "يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ "[3][4].

بحر البسيط:

إِنِّي بَسَطْتُ يَدِي آدعُوا عَلَى وا عَلَيْكَ عَسى تَخْلُوا أَمَاكِنُهُمْ أَحَدِ
مستفعلن فاعلن مستفعلن فَأَضْرَبُوا لاَيُرَى إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ "[5][6].
فعلن

و آخر:

عِنْدَ انْقِبَاضِيَ أَهْلُ العَذْلِ قَدْ و اسْوَدَّ وَجْهُهُمُ مِنْ قُبْضُوا صِلْنَا جَزَعا
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن أَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا "[7][8].

و قوله تعالى: "وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ "[9].

بحر المتقارب:

بِ وَ هَاتِ اسْقِنِي كَأْسَ رَاحٍ اعِدْ وُشَاتَكَ بُعْدَ السَّمَاءْ
فعولن فعولن فعولن فعولن "وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء "[10][11].

و من الآيات الواردة على هذا الوزن أيضا:

قوله تعالى: "زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا "[12].

قوله تعالى: "وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا "[1].

---

[1] - سورة الكهف، الآية 29.
[2] - سورة طه، الآية 55.
[3] - سورة الأنعام، الآية 151.
[4] - إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، دار القلم، بيروت، ط4 ، ص309
[5] - سورة الأحقاف، الآية 25.
[6] - تمام حسان: البيان في روائع القرآن ، ص268.
[7] - سورة يونس، الآية 27.
[8] - إبراهيم أنيس،: موسيقى الشعر، ص310.
[9] - سورة ص، الآية 52.
[10] - سورة الكهف، الآية 29.
[11] - تمام حسان: البيان في روائع القرآن ، ص268.
[12] - سورة الزلزلة، الآية 01-02.

قوله تعالى:"أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ "[2].

قوله تعالى:"وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا .وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ "[3].

بحر الوافر:

بِرِ حُسنِهِ رَثتِ الأَ ْعَادِي يَّ و قدْ أَبَوْ في الحُبِ طعْنَا

مفاعلتن مفاعلتن فعولن "وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا"[4][5].

و من الآيات أيضا:

قوله تعالى:"إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ "[6].

قوله تعالى: "وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ "[7].

قوله تعالى: "فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ "[8].

بحر المديد:

يا مَديدَ الهَجرِ هلْ منْ يهِ آيَاتُ الشِّفَا للسَّقِيمِ كِتَابِ

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ "[9]

و من الآيات أيضا:

قوله تعالى:"حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم "[10].

قوله تعالى:"قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ "[11].

قوله تعالى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا..."[12].

قوله تعالى: " قوله تعالى:"اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..."[13].

قوله تعالى:"وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ "[14].

---

[1] - سورة الفتح، الآية 01.
[2] - سورة الأعراف، الآية 183.
[3] - سورة الطلاق، الآية 02-03.
[4] - سورة الأحزاب، الآية 67.
[5] - إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص310.
[6] - سورة المطففين، الآية 30.
[7] - سورة التوبة، الآية 14.
[8] - سورة التوبة، الآية 45.
[9] - سورة يونس، الآية 01.
[10] - سورة البقرة، الآية 109.
[11] - سورة يوسف، الآية 19.
[12] - سورة آل عمران، الآية 92.
[13] - سورة هود، الآية 37.
[14] - سورة الطور، الآية 49.

قوله تعالى: "وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ "[1].

قوله تعالى: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى..."[2].

و تمضي الشواهد القرآنية على براعة التوزيع المقطعي في القرآن الكريم، الذي " نزل بلسان عربي مبين، لسان موسيقي تخضع مقاطعه في تواليها لنظام خاص...وتتردد في كلماته مقاطع بعينها تستريح إلى ترددها الآذان"[3]، تمضي تبث الجمال و حسن الإيقاع في النص القرآني.

إن من يبحث في تأثر الشعر بالقرآن يلاحظ أن " الترتيب المتناسب للمقاطع في نظم الآيات القرآنية من الأسباب التي جعلت تضمين آيات أو أجزاء منها في بيت أو قصيدة شعرية أمرا سهلا لا مشقة فيه"[4]، فكثر الاقتباس من آيات القرآن الكريم وجمله، فإن الكلمة القرآنية في جملتها تبدوا وسط النصوص المقتبسة ذات غرابة وذات سبك خاص؛ إن في موسيقاها أو في تركيبها. و ما كان ليتأتى لأولئك الكاتبين اقتباسهم لولا القدر العظيم من الآيات الموزونة موسيقيا، و التي تطمئن إليها الأسماع، و تنفذ إلى القلوب.

وطفق الشعراء من حين نزول القرآن إلى آياته و جمله يرصعون بها أشعارهم وتبارون في قدرتهم على الاقتباس، فخلفوا كما هائلا من الأشعار الموشاة بالآيات أو بعضها، يقول ابن الرومي:

لَإِنْ أَخْطَأتَ فِي مَنْعِي ... لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعِ

لَدَيْكَ

" بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ"[5]

زَرْعٍ"[5]

و يقول أبو نواس راجزا:

وَ قَرَا مُعْلِنًا لِيَصْدَعَ قَلْبِي ... الْهَوَى يَصْدَعُ الْفُؤَادَ السَّقِيمَا

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ... فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ "[1]

---

[1] - سورة ق، الآية 40.
[2] - سورة القصص، الآية 76.
[3] - إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص308.
[4] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص319.
[5] - سورة إبراهيم، الآية 37.

و يقول أبو تمام:

و بَيَّنَ اللهُ هَـذا فِي بَرِيَّتِهِ فِي قولِهِ "الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ"[2]

" و قول القائل:

قدْ قُلْتُ لَمَّا حَاوَلُوا سَلْوَتِي هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ "[3]

و قول الآخر:

سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ هَذَا حَقاً و مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ "[4][5]

و قد أوردنا ما شاكل وزنه وزن البحور من الآيات و الجمل شعرا؛ لأنه في الإبانة اقرب و بالمقصود أوفى، و إذا نظرنا في استخدام القرآن للمقاطع الصوتية لأداء الوظيفتين الدلالية و الجمالية فإننا نواجه بهذه القدرة المعجزة في التوزيع والترتيب على نسق تنقطع دونه أعناق البلغاء.

المبحث الثالث: توازن الجمل القرآنية

تمهيد:

للنص في الأدب ظواهر أسلوبية تساهم بقسط كبير في أدائه الموسيقي، و هذه الظواهر تتعدد و تختلف، منها ما يكون داخليا يحدث إيقاعا داخليا في الجملة، ومنها ما يكون خارجيا، و إذا كان الوزن في الشعر يمثل السمة الغالبة بل الواضحة في أداه الموسيقي، فإن ما يقابل ذلك في النثر هو التوازن، لذي يؤدي دوره في النص النثري كما الدور الذي يؤديه الوزن.

و القرآن بإيقاعيته المتنوعة نجد" من أبرز عناصر التناسب الإيقاعي فيه؛ توازن الآيات و تناسب مقاديرها الزمنية و اللفظية"[6]، و هذا ما يقودنا في هذا المبحث إلى نتناول التوازن كمصدر من مصادر الإيقاعية القرآنية.

---

[1] - سورة الماعون الآية01-02.

[2] - سورة الأنبياء، الآية 37.

[3] - سورة المؤمنون، الآية 36.

[4] - إشارة إلى الآية الكريمة "سُبحَانَ الذِي سَخَّر لنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرنِين". سورة الزخرف، الآية 13.

[5] - أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 45-46.

[6] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن ، ص 329.

1- تعريف التوازن:

يعتبر التوازن بين القوانين التي يقوم عليها الإيقاع، ذلك أننا " إذا تصفحنا الإيقاع في كلام العرب شعره و نثره وجدناه لا يخلو في أغلب الحالات من ظواهر تسمه بخصائص مميزة تستحسنها الطباع و النفوس، من هذه الظواهر التوازي والتوازن و التعادل و التكرار.."[1]؛ فالوزن في الشعر ما هو إلا توازن و تعادل وتكرار زمني و لفظي بين مصراعي البيت.

لذلك يعرف الشعر على أنه الكلام الموزون المقفى، فهو إنما يستمد إيقاعيته من توازنه من جهة، و من التقفية من جهة أخرى، أما النثر فقد نجده يتفق مع الشعر في توازن الجمل و تقفيتها و قد يتوازن دون تقفية، لذلك نجد ابن الأثير في كتابه المثل السائر يعرف التوازن فيقول: " هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن"[2].و استدل بما جاء منه في القرآن و هو قوله تعالى: "وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ "[3]. و يفهم من ذلك أن توازن الفواصل في مصطلح البلاغيين مقصود به إتفاق أعجاز القرائن في الوزن دون الروي.

و على الاختلاف الوارد في حد الفاصلة؛ أهي جملة آخر العبارة أم هي كلمة آخر الجملة؛ فإننا نذهب بعض الشيء مع ابن الأثير في تعريفه للتوازن، و التي عبر عنها بالموازنة أنها التساوي في القرائن. و إن كان شاهده يلبس علينا؛ لإيراده شاهدا تتعادل في كلمات الطرفين.

و إذا كان ابن الأثير يرى التوازن من زاوية الألفاظ، فإننا نريد في هذا المطلب أن نبتعد بالمفهوم أبعد من ذلك كي يشمل الفقرات و الآيات كما شمل مصراعي البيت في الشعر.

---

[1] - نعيم اليافي: عودة إلى موسيقى القرآن، موقع .www.islamic-sufism.com.

[2] - ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تحقيق: د. احمد الحوفي و د. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر،ط1، 1379هـ /1959م، ص 377.

[3] - سورة الصافات، الآية 118.

يقول أبو زيد: " نرى التوازن في الشعر، حيث يتقابل الضرب و العروض، وتتقابل بينهما التفاعيل، و نراه في النثر حيث تزدوج الجمل و القرائن، و تتعادل الألفاظ و تتوازن "[1].

و نخلص من هذا القول بأن أبو زيد يعرف التوازن على أنه تقابل و إزدواج وتعادل و توازن بمفهوم ابن الأثير، فهو بذلك وسع من دائرة التوازن كعنصر من العناصر المشكلة و المنوعة للإيقاع القرآني.

و من الناحية الشكلية يبدو لنا التوازن في تقابل كلمات العبارتين و تساويهما في الوزن الصرفي، و هذا ما يجعل التوازن جليا يغني شكله عن تعريفه، إذ الفطر السليمة تحسه و تتذوقه دونما الحاجة إلى استدلال الغير عليه.

غير أننا إن عدنا إلى الشعر لا نجده يكسب توازنه من تقابل ضربه و عروضه على الاطراد في ذلك، و إلا لكان ممجوجا و باعثا على التكلف و الملل، إنما تلك الموسيقية و ذلك التوازن يُستمد من تقابل مقاطعه الصوتية، و التي تحدثنا عنها في عنصر الإيقاع الداخلي، وكما أن تكرار المقاطع في ذات العبارة أو الجملة أو الآية باعثا على حدوث الإيقاع، فإن تكرار قالب هذه الآية يكون منشئا للتوازن بينها وبين غيرها من الآيات التي تشاكلها.

و ما يمكن ان نلخصه من كل ما سبق أن " التوازن في العناصر الصوتية والإيقاعية... يتصل بترتيب المقاطع الصوتية و توزيعها و إيجاد التوازن بينها في تقسيم الآيات"[2]، و أن حد التوازن لا يمكن حصره في تقابل الكلمات و تساويها وزنا أو تقابل كلمات الآية مع نظيرتها أو تعادل المقاطع الصوتية بين الآيتين فأكثر، إنما هو يشمل ذلك جميعا، غير أننا نريد في هذا المبحث تسليط الضوء على التوازن الناشئ من تقابل كلمات الآيتين باعتبار أننا خصصنا مبحثا للمقاطع الصوتية و كل ما يتعلق بها، و لا نريد تكرار الحديث للاختصار، و باعتبار أننا سندرس تقابل الكلمات و تساويها في غضون حديثنا عن الفاصلة.

---

[1] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص 329.
[2] - أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص348.

و عليه فالتوازن المقصود في دراستنا هو الناشئ عن تقابل كلمات الآيات وتكرار قالبها الشكلي و الصوتي، و هو أن يأتي القرآن الكريم بالقرينة على نسق قرينة سابقة عليها في ترتيب الكلمات مع اتفاق أواخر القرائن في الوزن و الروي و مثاله في القرآن قوله تعالى: وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا "[1] " فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا "[2].

و لا نقف عند هذا الحد في تعريف التوازن لوجود ظواهر هي أقرب إليه و ربما كانت نفسه إلا اختلاف المصطلح، فبعودتنا إلى التراث البلاغي نستجلي ظواهر كثيرة متداخلة مع توازن الجمل، عبر عنها البعض بالتوازي، و الأخر بالتقسيم والازدواج و المماثلة.

أما عن التوازي؛ فيقول عبد الرءوف مخلوف: " و التوازي و التماثل كقول الشاعر الراحل إبراهيم ناجي:

مَوْطِنُ الحُسْنِ سَوَى فِيهِ مَرَتْ أَنْفَاسُهُ فِي جَوِّهِ السَّأَمْ
و أَنَاخَ اللَّهُ فِيهِ و جَسَمْ مَرَتْ أَشْبَاحُهُ فِي بَهْوِهِ

و كقول الشاعر القديم:

تِلْكَ هَيْكَلَةٌ، خُودٌ مُبَتَّلَةٌ صَفْرَاءَ رَعْبَلَةٌ، فِي مَنْصِبٍ سَنَمِ
مُقَبَّلُهَا ، جَدْلٌ مُخَلْخَلُهَا كَالدَّغْصِ أَسْفَلُهَا مَخْضُوضَةُ الْقَدَمِ
وِدٌّ ذَوَائِبُهَا،بِيضٌ تَرَائِبُهَا مَحْضٌ خَرَائِبُهَا صِيغَتْ عَلَى الْكَرَمِ
بَلٌ مُقَيَّدُهَا، حَالٌ مُقَلَّدُهَا مُجَرَّدُهَا، لَقَّاءَ فِي عَمَمِ
سَمْحٌ خَلَائِقُهَا ، دَرْمٌ يُرْوَى مُعَانِقُهَا مِنْ بَارِدِ مَرَافِقُهَا الشَّبِمِ
نَّ مَعْتَقَةٌ، فِي الدِّنِّ مُعْلَقَةٌ صَهْبَاءَ مُصْفِقَةٌ مِنْ رَابِيءٍ دَدِمِ
شِيبَتْ مُذْهَبَةٌ مِنْ رَأسِ جَرْدَاءَ سَلْهَبَةٍ فِي حَالِقٍ

[1] - سورة الفجر، الآية 19-20.
[2] - سورة العاديات، الآية 04-05.

مَرْقَبَةٍ ثُمَّ هِمْ

فتلك جمل جميعها يتوازى بعضها مع بعض، و لكنه توازٍ غير متكامل"[1]، ونرى أن عبد الرءوف مخلوف بداء في قوله هذا بان الجمل متوازنة ليخلص في آخره إلى توازيها، و هذا إن دل على شيء إنما يدل على تداخل المصطلحين، و أنهما عنده بمثابة الواحد يعبر أحدهما عن الآخر.

و يتساءل ذاته عن قول الله تعالى "وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا.وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا"[2]، "أليس بين كل آية و أختها توازٍ و لكنه غير متكامل لاختلاف احد الجملتين عن أختها في صوت المقطع "[3].

و الحديث عن توازي الجمل إنما هو حديث عن قوالب يصنع فيها الأسلوب القرآني إيقاعه، و إن كان ما سبق يعد توازيا ناقصا في نظر عبد الرءوف مخلوف؛ فإن ذلك ينطبق على الشعر با عتبا ر وزن الحجر الذي يحكمه، أما في القرآن فلا يمكن الحكم بذلك؛ لأنه مخالف لكل أساليب الوزن الشعري، و مستقل بإيقاعية النثر المتفرد بها.

و تاسيساً على ما سبق يمكن القول أن توازي الجمل في القرآن جاء تاما لأن المقصود بالجمل المتوازية أن تكون "مقطعة تقطيعا متساويا بحيث تتفق في البناء النحوي اتفاقا تاما و سواء اتفقت هذه الجمل في الدلالة أم لم تتفق فالمهم هو تطابقها التام في البناء النحوي"[4]، و ما جاء في القرآن أغلبه من هذه الشاكلة و التي أمدت القرآن بقالب إيقاعي يطبع نصوصه بالتنوع و التعدد.

---

[1] - عبد الرءوف مخلوف: الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن ، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، دط، 1978م، ص255.

[2] - سورة الشمس، الآية 01-07.

[3] - عبد الرءوف مخلوف: المرجع السابق ، ص255.

[4] - إبراهيم عبد الجواد: موسيقى اللغة، ص67.

و هو بهذا التعريف نجده حاضرا في القرآن في مواضع كثيرة، ننتخب منها ما يلي:

"وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكَى وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا"[1].

"وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى"[2].

"فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ"[3].

"وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى"[4].

"فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا"[5].

"الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى"[6].

و نخلص من كل ما سبق ذكره إلى أن التوازن هو تكرار القالب الصوتي؛ تكرارا تتطابق حركاته و سكناته و طوله، فيحقق بذلك ركنا من الأركان التي يقوم عليها الإيقاع؛ الذي يتخذ في القرآن أشكالا عدة، بحسب الموضوعات و بحسب المعاني المرادة من النص.

2- القيمة الفنية للتوازن:

لكل لون إيقاعي جماليته الخاصة، لذلك درج الاستعمال على تعديد الأساليب الإيقاعية في النص الواحد، و أحيانا في الجملة الواحدة لإخراجها في حلة أبهى و أجمل، يتقلب القارئ أو السامع بين هذه الإيقاعات المتنوعة.

و إن كان من قيمة فنية تبرز للتوازن فإن خير من فطن لذلك الشعراء إذ "وجدوا في التوازن خير ما ساعدهم على التفنن في تنويع الإيقاع العروضي، و هداهم إلى ما تسمية كتب الأدب و البلاغة التقريع، و أن الكثير من كبار الشعراء قد وفقوا في استغلال هذه الظاهرة و توظيفها، و أخرجوا منها أبهى ضروب الإيقاع"[7].

---

[1] - سورة النجم، الآية 43-44.
[2] - سورة الضحى، الآية 07-08.
[3] - سورة الضحى، الآية 09-10.
[4] - سورة الليل، الآية 01-02.
[5] - سورة التوبة، الآية 82.
[6] - سورة الأعلى الآية 02-03.
[7] - محمود المسعدي: الإيقاع في السجع العربي، ص 83-84.

و لا تقف هذه الأهمية الفنية للتوازن عند الشعراء بل تتعداهم إلى أهل النثر، يقول العسكري أبو هلال في كتابه الصناعتين: " لا يحسن منثور الكلام و لا يحلو حتى يكون مزدوجا، و لا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلوا من الازدواج، و لو إستغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنه في نظمه خارج عن كلام الخلق و قد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه"[1].

و العرب – و هم من ملك ناصية البيان- لما أدركوا ما للتوازن من قيمة في الأداء الفني للنص و إبراز جماليته " حرصوا على تزيين كلامهم بزينته و تحليته بحليته، فلم يقنعوا بالوزن و القافية في أشعارهم، و لا بالسجع في خطبهم و أمثالهم، بل عمدوا إلى الترصيع و الالتزام بما لا يلزم و خرجوا في بعض الأحوال من الواجب في القياس حفاظا على التوازن و التناسب"[2].

و لقد عني علماء البلاغة العربية بالقيمة الفنية الجمالية للتوازن إلى درجة استحسان الكلام المتوازن وإعطاءه مزية الفضل، يقول ابن سنان الخفاجي: " فأما الكلام المنثور فالأحسن منه تساوي الفصول في مقاديرها، أو يكون الفصل الثاني أطول من الأول" فأحسن الكلام في رأيه ما كان موفور الأقسام متعادل المعاني صحيح التقسيم.

و نحن بصدد الحديث عن التنوع الإيقاعي في المتن القرآني نجد القرآن لا يلتزم أسلوبا واحدا في التركيب، ذلك لكي لا يكون الإيقاع رتيبا، و كذلك الأمر بالنسبة للتوازن. فالقرآن " إنما يلتزم به حين يكون التزامه أروع و أعجب، و يتخلى عنه حين يكون التخلي عنه ضرورة فنية لازمة لكسر الرتابة و تحقيق التنوع النغمي"[3].

إذن من ابرز القيم الفنية لظاهرة التوازن أنها تسهم في التنوع الإيقاعي و تلوينه، وليس ذلك لمجرد الجانب الشكلي الذي تصب فيه المعاني، بل هو مرتبط بالمعاني ذاتها، و هي التي تطلبه، فتجد طريقها إلى القارئ أو السامع من خلال هذا التنوع والتجدد في الأنغام و

[1] - أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات عيسى البابي الحلبي و شركائه، ص266.
[2] - احمد أبو زيد،: التناسب البياني في القرآن، ص 330.
[3] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص 370.

الإيقاعات، فـ" ترتيب الأصوات و المقاطع و تعادل الألفاظ و توازن الفقرات عناصر إيقاعية تؤدي وظائف أصلية في بلاغة المعاني و فصاحة العبارة و في زيادة حظها من الحلاوة و الرشاقة و مضاعفة قدرتها على إحداث التأثير المقصود"[1].

و القرآن الكريم في استعماله المعجز لهذه الخاصية يعمد إلى " تكرار القالب الصوتي للتعبير الذي توضع فيه الألفاظ في نظام دقيق، فتجد له الأذن لذة، و في تكراره متعة تجعله قريبا إلى النفس، سريع العلوق بالقلب، سهلا في حفظه وترداده"[2]، و هذه الخاصية أكثر ما نجدها في القسم المكي من القرآن، و لحرص القرآن على تكرار القالب الصوتي فإنه حتى مع طول العبارة لا يغفل ذلك، و مثاله قوله تعالى: " فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى "[3]، وقوله تعالى: كَلاَّ "إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ "[4]..." كَلَا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ .كِتَابٌ مَّرْقُومٌ "[5]؛للقيمة الفنية التي يبرزها هذا التكرار، إضافة إلى إسهامه في جلاء المعاني.

و حيث أن للنفس حظها من إدراك الجمال و القيم الفنية؛ فإن التوازن من المسارب التي يتروى منها هذا الحظ ، يقول ابن الأثير: " إذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان، و هذا لا مراء فيه لوضوحه"[6].و بالتالي فاكبر قيمة يعطيها التوازن للنص أن يوفر له الاستحسان و القبول عند المتلقي، وبذلك يكون باعثا على محاولة إستشفاق القيم الفنية الأخرى.

3- التوازن في الإيقاعية القرآنية:

[1] - احمد أبو زيد،: المرجع السابق، ص 334.
[2] - نجلة، محمود احمد:المرجع السابق، ص 351.
[3] - سورة الليل، الآية05-10.
[4] - سورة المطففين، الآية 07-09.
[5] - سورة المطففين، الآية 18-20.
[6] - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ص 378.

تتعدد أساليب التعبير في القرآن على حسب الموضوع و حال المخاطبين، فتارة نجد تعبيرا وجدانيا يفيض إيقاعا و خيالاً و يمتلأ صوراً، و أخرى نجده فكريا يخاطب الفكر دون العاطفة، كل هذه التعابير نجدها متوازنة لا جانب العقل يطغى فيها على جانب العاطفة و لا العكس، فالكل فيه متوازن لأن الإنسان إنما هو فكر و وجدان، ولذلك لا تخلو آيات القرآن من الإيقاع الذي هو مفتاح الوجدان و لا المنطق الذي هو دليل العقل للتفكير.

من هذه الخاصية كان للقرآن مكانته المباينة لمكانة الشعر و النثر في إيقاعه الموسيقي ،حتى أنه عد " جزء أصيل من بلاغة النظم القرآني و فصاحته، و أنه من وسائل هذا النظم و أدواته التي استخدمها للتأثير و الإقناع و اجتذاب القلوب والآذان"[1]. و إن كان الإيقاع جزء أصيل من بلاغة النظم القرآني و التوازن من أهم الأركان التي يقوم عليها الإيقاع؛ فإنه من الضرورة أن تقوم إيقاعيته على هذا الركن.

و التوازن واحد من المؤثرات الإيقاعية في النص القرآني، لا تقل أهمية عن دور القافية و المقاطع و الحروف و غيرها من المحسنات اللفظية، فـ" ما في القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن... -إذ- ترى له جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك و تمنح آذنك من المتعة و نفسك من الارتياح ما لا تجده في بعض الشعر و الغناء"[2].

و القرآن جرى على سنة العرب في إستعمالها اللغوي، فهم لم يكتفوا بـ بإستعمال التوازن الجلي في النثر فحسب، بل حتى في الشعر، إذ كثيرا ما عمدوا إليه لتنويع الإيقاع و الخروج من قيد الوزن الذي يطرد على كامل القصيدة فيطبعها بإيقاعه الرتيب، و معروف على العرب في خطبها و مساجلاتها تلك الجمل المتوازنة والمسجوعة أحيانا، و لعل ذلك ما يفسر التباس أمر القرآن على قريش و عدم اجتماع كلمتها عليه.

و الجزء المكي من القرآن عامر بأساليب الإيقاع ،ولانكاد قرا سورة إلا وجدنا فيها من الآيات الموزونة ما به يستقيم الإيقاع و يحسن الكلام، غير أن ما نجده من توازن يختلف، فأحيانا يكون تاما بتساوي

[1] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص 333.
[2] - تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص 270.

الأجراء، و أخرى يكون متعادلا؛ أي في جانبه الصوتي مع اختلاف بسيط في مفرداته.

و من التوازن التام في القرآن ما نقرأه في الآيات الآتية تمثيلا لا حصرا:

و"الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً . فَالجَارِيَاتِ يُسْرا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً"[1]، " إِذا السَّمَاء انفطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ . وَإِذا البِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ "[2]، و كذا نجد في سور أخرى.

و من المتعادل الآيات التالية (على سبيل التمثيل):

"مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا"[3]، " إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ"[4].

فالإيقاعية القرآنية إذن من أساليبها في صنع الإيقاع؛ التوازن الذي يعمل على تعادلا أجزاء الكلام حتى تكون العملية النطقية ميسورة و محدثة للإيقاع بتكرارها وانسجامها مع باقي عناصر النص.

[1] - سورة الذاريات، الآيات 01-04.
[2] - سورة الانفطار، الآيات 01-04.
[3] - سورة الشورى، الآية 20.
[4] - سورة فاطر، الآية 14.

المبحث الرابع: الفاصلة القرآنية

1- تعريف الفاصلة:

لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور أن الفاصلة من الفصل، و الفصل بون ما بين الشيئين أو الحاجز بينهما كما أورد ابن سيدة، و فصلت الشيء فانفصل أي قطعته فانقطع و في القرآن: " هذا يوم الفصل" أي هذا يوم يفصل فيه بين المحسنين والمسيئين.

و الفصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، و قد فصل النظم.

و الفاصلة التي في الحديث: " من انفق نفقة فاصلة في سبيل الله فبسبعمائة"[1] و في رواية " فله من الأجر كذا" تفسيرها في الحديث أنها التي فصلت بين إيمانه و كفره.

و الفاصلة الصغرى من أجزاء البيت: هي السببان المقرونان و هو ثلاث متحركات بعدها ساكن، نحو: (متفا) من متفاعلن و (علتن) من مفاعلتن، فإذا كانت أربع حركات بعدها ساكن. مثل فعلتن فهي الفاصلة الكبرى.[2]

و فصل الكلمة من الكلمة إذا انفردت كل واحدة منهما بمعنى هو المعنى الذي في الأخرى، و إذا نظرنا إلى الكلمات في تتابعها لا بد أن تكون لها معان مختلفة كي نكون نسيجا له معنى، و بالتالي فالظاهر أن المقصود بالكلمة هنا ، مجموعة المفردات المكونة لجملة لها معنى، و منه يمكن أن تكون مجموع كلمات الآية لانفراد كل آية بمعناها الخاص.

اصطلاحاً: انطلاقا من هذا الأصل اللغوي نجد من عرف الفاصلة على أنها "كلمة آخر الجملة"، و يؤكد ذلك بشرحه لمقاله: " لما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده، و الكلام المنفصل قد يكون رأس آية و غير رأس آية، و كذلك الفواصل يكن رأس آي و غيرها، و

---

[1] - أخرجه الإمام احمد في مسنده بلفظ فاضلة.

[2] - ابن منظور: لسان العرب، ج5.

كل رأس آية فاصلة، و ليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين و تجمع الضربين"[1].

و من الدراسات القرآنية السالفة من تؤثر استعمال مصطلح رؤوس الآي تمييزا لهذه المظاهر اللغوية عن مصطلحات الشعر و النثر.

و الملحظ الذي نلحظه في التعريف السابق أنه يحمل الفاصلة على نهاية الجملة وإن تعددت الجمل في الآية، فتسمى الجملة التي تبدأ بها الآية رأسها و بالتالي تتعدد الفواصل في الآية الواحدة.

غير أننا نجد من الدراسات خصوصا عند القدامى من يسمي الفاصلة رؤوس أي تمييزا لها عن مصطلحات الشعر و النثر، و معلوم أن للشعر قوافيه و للنثر أسجاعه، ولا تكون لهما هاتين الخاصيتين إلا في عجز البيت بالنسبة للشعر، و نهاية الجملة بالنسبة للنثر، فبالمقارنة نجد أن الفاصلة يجب أن تطلق على نهاية الآية لا الجمل المكونة لها.

و حينما يتأدبون مع القرآن فيوردون لفظ رأس الآي فإنما ذلك لتنزيه القرآن عن التمايز بين طرفي الآية فهم يعتبرون بدايتها و نهايتها سيان لا يعروها الارتفاع والانخفاض فهي كلها في المقام العالي الذي لا يدانيه مقام آخر.

و هذا ما نجده في الدراسات القرآنية الحديثة فأكثر ما يتكلمون عن فواصل القرآن الكريم إنما يتكلمون عن نهايات الآيات.

لذلك لا نجد عند القدماء تعريفا واضحا يجلي الإشكالات السابقة التي أشرنا إليها فنجد الرماني في كتابه النكت في إعجاز القرآن يعرفها فيقول: "الفواصل حروف متشاكلة توجب حسن إفهام المعاني"[2]. وهو في تعريفه هذا لم يحدد أهي في نهاية الجملة أو في نهاية الآية. و نجد الباقلاني أيضا يعرفها على أنها " حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، و فيها بلاغة"[3]، و هذا الكلام فيه موافقة لكلام الرماني إلا في الوصف الزائد و هو البلاغة.

---

[1] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1 ، ص 84.
[2] - الرماني: النكت في إعجاز القرآن. ص 97.
[3] - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص189.

و عليه فإنه حسب ما بين أيدينا من دراسات حول الفاصلة القرآنية و باستقراء أغلبها نخلص إلى تعريف الفاصلة كما عرفها أحد الدارسين المعاصرين بقوله أن الفاصلة هي " النهاية التي تذيل الآية القرآنية"[1].

و يرى آخر أن الفاصلة تطلق و يراد بها أحد معان ثلاث :
- حرف الروي الذي تنتهي به الآية، و يشبه أو لا يشبه قرينة السجع و قافية الشعر.
- المقطع الذي تنتهي به الآية، و تقترب بهذا المعنى من القافية بالتحديد الذي وضعه الخليل و اقترحه للمصطلح.
- الجزء الأخير الذي تزيل به الآية، و يكون أفضل نهاية مناسبة متمكنة لها.

و لعل مرد ذلك الاختلاف في الآراء و تعددها حول مفهوم الفاصلة و تعريفها إنما يرجع إلى تنوع أشكالها و تعدد صورها، و قد فطن لذلك سيد قطب حين قال: " إن الفواصل في القرآن غيرها في الشعر فهي ليست حرفا متحدا، و لكنها إيقاع متشابه مثل: "يصير" ، "حكيم" ، "مبين" ، "مريب" أو مثل: " لألباب" ، " لأصبار"..."[2]، فالفاصلة في القرآن إذن تكون كلمة أو مقطعا من كلمة أو حتى جملة.

و تجدر الإشارة هنا إلى أن من المتقدمين و المحدثين من يستعمل لفظ السجعة ويرى أن ذلك لا يضير المتن القرآني ما دام مستقلا بأسلوبه و إيقاعه الخاص، ومنهم من يستعمل الفاصلة و قافيتها، فالأسماء تتعدد و المسمى واحد.

و الذي نختاره في هذه الدراسة و الأقرب إلى موضوع البحث أننا حينما نورد لفظة الفاصلة فإننا من خلال كل الاختلافات التي أوردناها نستعملها تجوزا للدلالة على النغم الأخير الذي يطبع الآية، مجارين في هذا الاستعمال الدراسات الكثيرة التي حينما تتحدث عن الفاصلة تركز على الإيقاع المنبعث من قافيتها، و تعني به التشاكل الصوتي لأواخر الآيات.

---

[1] - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص 203.
[2] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج2، ص193.

و ما يمكن الخلوص إليه من كل الآراء حول الفاصلة القرآنية أن من نظروا إلى المعاني عرفوا الفاصلة على أنها تركيبة الكلمات التي تنتهي بها الآية، و تعبر عن المعنى الإجمالي لما سبقها أو تلخصه، و من نظر إلى الجانب الصوتي السمعي للفاصلة عرفها على أساس التشاكل الصوتي للحروف في نهايات الآيات.

2- الوظيفة الإيقاعية للفاصلة:

إذا كانت دراسة الإيقاع في الأدب عموما و في النص القرآني بوجه الخصوص من المستحدثات في الدراسات الأدبية، فإن ذلك لا يطرد على الفاصلة، فهي كأهم مظهر صوتي في القرآن فطن لها العرب أثناء تعاملهم مع القرآن، لذلك نجد اغلب من طرقوا الجانب الصوتي من القدامى إنما تحدثوا عن الفاصلة و جانبا من المحسنات اللفظية في المتن القرآني.

يجمع الذين درسوا الذاكرة الإنسانية أن الذاكرة تحتفظ جيدا بالنهايات لذلك نجد من الذين يخاطبون الناس يقومون في آخر كلامهم بحوصلة جد مختصرة لكل ما جاء في حديثهم و نجد أيضا المشتغلين بالموسيقى يجعلون من نبرة آخر الجمل الموسيقية موضع ارتكاز يلجأون إليها من حين لآخر لإحداث النغم و الحفاظ على الإيقاع الموسيقي للنص ، و الأدب شأنه في ذلك شأن الخطابات و الموسيقى، يعتمد لإحداث الإيقاع في النصوص على نهايات الجمل، فيجعل منها وحدة متناسقة يحس المتلقي معها بنوع من النغمات، تبث تشكل إيقاعا يعم النص كله.

و إذ نقف مع الزركشي في برهانه حيث يرى أن الحكمة في ختم كلمات المقطع من الفاصلة في القرآن بحروف المد و اللين و إلحاق النون، إنما هي وجود التمكين من التطريب[1]، نتبين المكانة و الأهمية التي تحتلها الفاصلة في بلورة الإيقاع وإحكامه.

و القرآن بمعماريته الإيقاعية الخاصة لا يقف عند حدود المتعارف عليه بين أهل اللغة العربية من أدوات الإيقاع؛ و إنما ينتهج في ذلك

[1] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص99.

نهجا يتفق فيه مع بعض ما تعارفوا عليه و يخرج عنهم في اغلبه، و كيف لا يكون و هو المثل الأعلى في البيان إليه يرجع كل أصل و منه ينطلق كل فرع.

يقول الرافعي مصطفى صادق عن الفاصلة القرآنية و دورها الموسيقي " و ما هذه الفواصل التي تنتهي بها الآيات إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، و هي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلاءم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، و تراها أكثر ما ينتهي بالنون و الميم، و هما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، و هو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن إنتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة و تقطيع كلماتها، و مناسبة للون المنطق بما هو أشبه و أليق بموضعه"[1].

و القرآن يقصد إلى الاستهواء الصوتي و يعمد في ذلك إلى "طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة – لان-أثرها طبيعي في كل نفس فهي تشبه في القرآن أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، و كل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار و الاستجابة"[2].

هذه الأهمية للفاصلة في إحكام الإيقاع القرآني و تنويعه لا نجدها فقط عند الرافعي و من قبله الزركشي بل نجدها أيضا عند محي الدين رمضان في كتابه الإعجاز الموسيقي في الفران إذ يقول في مبحث عقده لمصادر الموسيقى في النظم القرآني يقول: "لا سبيل إلى الكلام عن هذا الجانب من الموضوع و هو بحق أصله ولبابه إلا من حيث توافر الخاصية الموسيقية في العبارة القرآنية و هي متوافرة في مفاصله"[3]و هو يقصد بذلك فواصله و استدل بحديث رواه عبد الله بن أبي مليكة عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها " أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا قرأ قطع قرأته آية آية، يقول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ثم

[1] - الرافعي،: إعجاز القرآن، ص 178.
[2] - الرافعي،: إعجاز القرآن، ص 179.
[3] - رمضان محي الدين: وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن ، ص 45.

يقف، ثم يقول: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ[1] ثم يقف، ثم يقول:الرَّحْمنِ الرَّحِيمِمَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ[2]"[3].

و يضيف محي الدين رمضان قائلا: " و الرأي عندي أن فواصل القرآن و مقاطعه إنما هي من ابرز مصادر الموسيقى و ابلغها إعجازا موسيقيا، ذلك لأنها تقابل القوافي في الشعر. و القافية هي قرارة الوزن"[4]، و حكمه هذا لا يقلل من قيمة العناصر الإيقاعية الأخرى في النص القرآني فلكل مكانته و لكل دوره ما دمنا بصدد الحديث عن التنوع الإيقاعي في القرآن.و لفظة ابلغها لا تنفي البلاغة عن المكونات الأخرى.

و يتفق بكري شيخ أمين مع الرأي السابق إذ يرى أن " وقع الفاصلة في الآية يشبه القافية في البيت الشعري و كما أن القافية في البيت عنصر متميز فان الفاصلة كذلك في الآية عنصر متميز و لكنها كالقافية تبقى جزءا أصيلا من الآية غير منفصل"[5] هذا عن مكانتها في النظم أما عن دورها فيه فيستطرد قائلا: " إن الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد شحنة من الوقع الموسيقي و شحنة من المعنى المتمم للآية"[6].

فالفاصلة على جانبها الشكلي تؤدي وظيفة تمكين المعنى؛ فالإيقاع الموسيقي للقرآن " حينما يلتئم برنة السجع تأخذ النغمة أبعادها من عمق الآية و من حروف أواخرها، و كلما كانت الأواخر أكثر إيقاعا كا ت الذ سق لذ أثراً و المعنى أكثر خلوداً"[7]، و هو السر الذي يقف وراء اهتمام العرب بالخواتم؛ إن في شعرهم أو نثرهم.

و ينبهنا إلى ذلك ابن جني في الخصائص فيقول: " لأترى أن العناية في الشعر إنما هي بالقوافي؛ لأنها المقاطع و في السجع كمثل

---

[1] - سورة الفاتحة، الآية 01.
[2] - سورة الفاتحة، الآية 02-03.
[3] - أخرجه الترمذي سننه و الحاكم في المستدرك.
[4] - رمضان محي الدين: وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن، ص 49.
[5] - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص 203.
[6] - المرجع نفسه، ص 203.
[7] - عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، ص230.

ذلك نعم و آخر السجعة و القافية أشرف عندهم من أولها، و العناية به أمس و الحشد عليها أوفى و أهم"[1].

3- رعاية الفاصلة في الإيقاع القرآني:

يقول بغدادي بلقاسم : " لإيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل اسر كبير في تحسين الكلام و إيضاح المعنى و له اثر كبير في النفس و القرآن يراعيه إلى درجة كبيرة حتى أنه ليخرج عما يعتبر من الأصول"[2].

و القرآن يقصد إلى التأثير النفسي لدى متلقيه؛ سامعين أو قارئين، و لا شك أن موسيقى الصوت و أنغامه مدخل من تلك المداخل التي تؤتى منها النفس، و استقامة الفواصل بألحانها و أجراسها لا شك تؤدي دورها التأثيري تاما.

لذلك نجد القرآن في كثير من المواضع رعاية للفاصلة يعدل عن الأصول اللغوية والنحوية المتعارف عليها بحثا عن حسن الصوت للفواصل و مراعاة للتجانس، يقول الزركشي: " اعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا ومؤثر في اعتدال نسق الكلام و حسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما، و لذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع"[3].

و من علماء السلف من أحصى المواضع التي خالف فيها القرآن القواعد المتعارف عليها بين أهل اللغة، فـ"ذكر الشيخ شمس الدين الصائغ في كتابه إحكام الرأي في أحكام الآي ما ينيف على الأربعمائة حكما خالف فيها القرآن ما يعتبر من الأصول عند علماء اللغة"[4].

---

[1] - ابن جني: الخصائص، ج2، ص69.
[2] - بغدادي بلقاسم: المعجزة القرآنية، ص 279.
[3] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 91.
[4] - السيوطي: الاتقان، ج2، ص99.

و يرصد لنا أحمد أبو زيد جوانب من ذلك[1]:

1- إيثار تذكير اسم الجنس كقوله تعالى: "كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ "[2].

2- إيثار تأنيث اسم الجنس نحو قوله تعالى: " كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ "[3].

3- إيثار اغرب اللفظين قوله تعالى: " تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى "[4] ، و لم يقل جائرة و قوله " لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ "[5]، و لم يقل جهنم أو النار، و قال في سورة المعارج كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى "[6] ، و في سورة القارعة "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ "[7]، كل ذلك مراعاة للفاصلة.

4- الإستغناء بالإفراد عن التثنية نحو: " فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى "[8].

5- الاستغناء بالإفراد عن الجمع نحو: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا "[9]، و لم لم يقل أئمة، و نحو "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ "[10]، و لم يقل انهارا مراعاة للفاصلة.

6- الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحو "لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ "[11]، أي و لا خلة كما قال في الآية الأخرى، و جمع مراعاة للفاصلة.

7- إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض نحو إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ "[12].

وقوله تعالى: وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا "[13]، و العرب ألفت أن تستعمل كبير وعجيب.

---

[1] - ينظر. احمد أبو زيد التناسب البياني، ص 363-364.
[2] - سورة القمر، الآية 20.
[3] - سورة الحاقة، الآية 07.
[4] - سورة النجم، الآية 22.
[5] - سورة الهمزة، الآية 04.
[6] - سورة المعارج، الآية 15.
[7] - سورة القارعة، الآية 06.
[8] - سورة طه، الآية 117.
[9] - سورة الفرقان، الآية 74.
[10] - سورة القمر، الآية 54.
[11] - سورة إبراهيم، الآية 31.
[12] - سورة ص، الآية 05.
[13] - سورة نوح، الآية 22.

8- إثبات هاء السكت: نحو "مَالِيَه" "سُلطَانِيَه" من سورة الحاقة، و "مَاهِيَه" من سورة القارعة.

و في دراسة لنعيم اليافي بعنوان: عودة إلى موسيقى القرآن، يطلعنا أن مبلغ إتزان الإيقاع عند بعض القدماء إنما هو في الفواصل، أما عن الأوجه التي خالف فيها القرآن قواعد اللغة، فإنه أسقط مما ذكره ابن الصائغ كثير، لدخولها حسبه في علم المعاني ، و اختار منها ما يتصل بميدان الأسلوبية الإيقاعية، وصنفها كما يلي[1]:

التقديم:

- تقديم المفضول على الفاضل: "بِرَبِّ هَارُونَ و مُوسَى"[2] عوض موسى وهارون.
- تقديم الضمير على ما يفسره: "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى "[3].
- تقديم ما هو متأخر في الزمان: "فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى "[4].
- تقديم خبر كان على اسمها: "وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ "[5].
- تقديم المفعول على الفاعل: "وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ "[6].

الحذف:

- حذف المفعول: "وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى "[7].
- حذف ياء الإضافة: "فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ "[8].
- حذف ياء المنقوص : "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ "[9] ، "وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ "[10].
- حذف ياء الفعل غير المجزوم: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ "[11].

---

[1] - اليافي، نعيم: مقال عودة إلى موسيقى القرآن.
[2] - سورة طه، الآية 70.
[3] - سورة طه، الآية 67.
[4] - سورة النجم، الآية 25.
[5] - سورة الإخلاص، الآية 04.
[6] - سورة القمر، الآية 41.
[7] - سورة الضحى، الآية 03.
[8] - سورة القمر، الآية 16.
[9] - سورة الرعد، الآية 09.
[10] - سورة غافر، الآية 32.
[11] - سورة الفجر، الآية 04.

الذكر:

- في قوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ "[1].
- و قوله: "تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ "[2].

تغيير بنية الكلمة:

- "وَطُورِ سِينِينَ "[3] بدلا من طور سيناء.

و كل هذه الأمثلة و غيرها التي ساقها العلماء أنما ساقوها للاستدلال على رعاية القران للفاصلة و حسن الإيقاع، و لا يكون هذا عيبا قادحا في القرآن؛ فالفواصل فيه تابعة للمعاني، و القرآن نزل باللسان العربي الذي درج على رعاية القوافي في شعره و الأسجاع في نثره، لا غرو إذن أن يجيء مبايناً لهما في الأسلوب و يكون بذلك مستقلا.

4- الفواصل و تنوع الإيقاع:

تتنوع الإيقاعية القرآنية بتنوع المواد المشكلة لها، و لا يخلو من ذلك، إذ "تراها تجري في عدد من آيات السور على نمط و لكنها سرعان ما تتحول عنه إلى نمط آخر"[4]، و هذا التقلب من نمط إلى آخر آخر يحدث في النص القرآني إيقاعية متجددة يحس المتلقي معها أنه دوما في شكل جديد من أشكال الإيقاع، إضافة إلى الإيقاع الداخلي للآيات، كل ذلك في تناسق و انسجام بعيدا عن الخلل و الانكسار.

لقد حير القرآن العرب، فمن حيث قلبوه لا تستقيم لهم وجهة، ومن حيث أداروه دار؛ و لكن لا كما يريدون.

إن الإيقاعية التي يمتاز بها القرآن خصوصا في فواصله؛ جعلت عرب قريش آنذاك يعرضون تلك الإيقاعية على ما عرف عندهم من موروث أدبي، و ما برعوا فيه من البيان و البديع ،و ما كانوا يستودعون فيه إيقاعهم من فنون اللغة العربية، " فربطوا بينها بالباطل و بين تقفية الشعر، ثم إدعوا لأدنى ملابسة أن القرآن قول شاعر"[5]، ثم

---

[1] - سورة النجم، الآية 19-20.
[2] - سورة النجم، الآية 22.
[3] - سورة التين، الآية 02.
[4] - تمام حسان: البيان في روائع القرآن ، ص 276.
[5] - تمام حسان: المرجع السابق، ص275.

ثم بعد أن جاءهم الرد القرآني " وَمَا هُو بِقَولِ شَاعِرٍ"[1]، عرضوه ثانية على أسجاع الكهان فكان الرد ثانية وَلا بِقَولِ كَاهِنٍ"[2].

و لسنا ندري كيف سوغت لهم أنفسهم هذه المقارنة على ما يتضح في فواصل القرآن من التنوع و التعدد.

و كما نجد في القرآن سوراً يكون الوقوف فيها على حرف معين لا تتغير معه الفاصلة؛ كما هو الشأن في قصار السور كالقدر و العصر و الفيل و الليل والكوثر، و جملة من السور الوسطى كالأعلى و القمر،" و فيها جميعا مراعاة للمنهج الصوتي و البعد الإيقاعي و يتجلى النغم الصوتي بأبهى صوره"[3]، نجد أيضا سورا لا تلتزم "الوقوف عند حرف معين للفاصلة...بل.. الانتقال منه للوقوف عند حرف آخر للفاصلة.."[4] و الأمثلة في ذلك كثير.

هذه الخاصية التي نقف عندها من خلال السور المتوسطة غالبا لاحتوائها على مواضيع متفرقة تجتمع كلها لمعالجة الموضوع الرئيسي في السورة، هذه الخاصية بها "يتنوع و يتعدد الإيقاع الموسيقي في السورة الواحدة تبعا لتنوع فواصلها و قوافيها، حتى يأتي إيقاعا فنيا متناسقا"[5].

و إن كان الإيقاع يتعدد و يتنوع فإننا لا نشك أن ذلك يحدث لمجرد التنوع، وسيد قطب في كتابه التصوير الفني نلفيه يلمس هذه الحقيقة فيقول: " و قد تبين لنا في بعض المواضع سر هذا التغير و خفي علينا السر في مواضع أخرى، فلم نرد أن نتمحل له لنثبت أنه ظاهرة عامة كالتصوير و التخييل ..."[6].

غير أننا حين نطلع على تلك المواضع التي تتغير فيها الفواصل و تبعا لهذا يتغير الإيقاع نجدها تنتقل من موضوع إلى موضوع، و من الطبيعي أن لكل موضوع إيقاعه المناسب له و لكل موضوع حروفه

---

[1] - سورة الحاقة، الآية 41.
[2] - سورة الحاقة، الآية 42.
[3] - محمد حسين الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، ص 149.
[4] - المرجع نفسه، ص150.
[5] - عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص169.
[6] - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص89.

المناسبة له، و بالتالي تخضع الفاصلة إلى طبيعة الموضوع، إذن " الإيقاع الموسيقي يطلق متناسبا متناسقا مع الجو العام الذي أطلق فيه، و هذا الإيقاع يتعدد في السورة الواحدة و يتنوع تبعا لتنوع أجزاء السورة و تعددها و اختلاف أساليب العرض الفني فيها"[1].

و لا نذهب في ذلك كثيرا لنسوق مثالا كما قلنا عن تنوع الإيقاع بتنوع الفواصل لان كل " سورة أو نص قراني ينبع الإيقاع فيه من اندماج عنصرين : من نغمة خاصة تناسب الفكرة و تقوم القافية – الفاصلة – فيها بدور المفتاح و من لحن ينتظم النغمات جميعا على اختلاف درجاتها"[2]، فإضافة على الإيقاع الداخلي المنبعث من تناسب الحروف فيما بينها و تناسبها مع طبيعة الموضوع، تأتي الفاصلة فوق ذلك لأداء الدور الأهم و الأبرز، و شاهدنا في الموضوع سورة النازعات.

و يمكن من خلال فواصلها أن نميزها إلى ست مقاطع موسيقية:
المقطع الأول: ممثلا في الآيات: "وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا . وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا . فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا . فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ."[3]، "و يمهد لها بمطلع ...يسوقه في إيقاع موسيقي راجف لاهث"[4].

المقطع الثاني: قوله تعالى: " يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ . يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ "[5]، و يعقب المطلع بإيقاع مقارب له غير أنه يتميز عنه بنغمته الخاصة.

المقطع الثالث: يتمثل في قوله تعالى: " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى . فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى . فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى .

1 - عبد الفتاح الخالدي: المرجع السابق، ص 171
2 - اليافي، نعيم: عودة إلى موسيقى القران.
3 - سورة النازعات، الآية01-05.
4 - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج6، ص3811.
5 - سورة النازعات، الآية 06-14.

فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولى .إِن َّفِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى "[1]، و فيه " يهدا الإيقاع و يسترخي ليناسب جو الحكاية و العرض"[2].

المقطع الرابع: و في هذا المقطع يتغير مجرى الحديث فـ" ينتقل من ساحة التاريخ إلى...مشاهد الكون الهائلة ...فيخرجها في تعبيرات قوية الأسر قوية الإيقاع"[3]، في قوله تعالى: " أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا.رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا لأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا.أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ "[4].

المقطع الخامس:قوله تعالى: " فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى . يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى . فَأَمَّا مَن طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى "[5]، و يجيء الإيقاع فيها مرتفعا هادئا يصور الوقوف على الواقع الطامة الكبرى من جهة، و الاستسلام و الخضوع من جهة أخرى

المقطع السادس: و السورة به تختتم بإيقاع يزيد من روعة الساعة و هولها، والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل، تشارك في تشخيص الضخامة و تجسيم التهويل[6]في قوله تعالى: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا "[7].

و تبقى السورة شأنها شأن جميع السور المكية موضوعها العقيدة من جانب اليوم الآخر الذي لا يستقيم إيمان العبد إلا بالإيمان به كما يؤمن بالله و الملائكة و الكتب و المرسلين.

---

[1] - سورة النازعات، الآية 15-26.
[2] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج6، ص3811.
[3] - المرجع نفسه، مج6، ص3811.
[4] - سورة النازعات، الآية27-33.
[5] - سورة النازعات، الآية 34-41.
[6] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج6، ص3812.
[7] - سورة النازعات، الآية 42-46.

و مواضيع السورة إن تعددت – أو سلور- و إيقاعاتها أيضا إن تعددت تبقى إيقاعات متنوعة على أوتار القلب تخضع الإيقاع الأكبر للحقيقة الكبرى.

لقد فطر العرب في جاهليتهم على حب الإيقاع، فكانت لهم فيه ضروب و أشكال، و ما ذلك إلاّ ترجمة لأحوال تلك النفوس التي كانت تأبى المضي على نهج واحد لهذا الإيقاع، فوشّوا إنتاجهم الأدبي بما كان لهم في الإمكان من أساليب اللغة المفضية للإيقاع؛ فاستعملوا الجناس و كرروا الحروف و قسموا العبارات و رصعوا واستعملوا السجع و غيره، إلاّ أن كل ما أتوه كان متكلفا، يطغى عليه الحس الإيقاعي، أما القرآن فلم يشترط لنفسه شروطا تقيده في أعراف الأدب الجاهلي، فجاء بفواصل باهرة في موسيقاها مؤدية لمعناها، تتلون و تستقر بحسب المقال وبحسب المقام.

المبحث الأول: ثنائية اللفظ و المعنى:

لقد أخذت قضية إعجاز نظم القرآن من علماء المسلمين الجهد المضني، وأطالت بينهم الجدل و الخصومة، وشعبت الآراء والمذاهب، و مرد هذا الجدل والخصام يرجع في أهم جوانبه إلى ثنائية اللفظ والمعنى. فقد ربط هؤلاء العلماء ما بين قضية الإعجاز، وهذه الثنائية لكشف أسرار القرآن الكريم، وإبراز سر الإعجاز اللغوي فيه. فاهتم بعضهم بالصياغة اللفظية، وما يتصل بها من فنون البديع وأسرار الفصاحة. ووجه فريق آخر عنايته للمعاني وأحوال التراكيب لإثبات هذا الإعجاز.

1- تناسب الألفاظ و تناسب المعاني:

الناظر إلى ما كتب في إعجاز القرآن عند المتقدمين يجده ينقسم في دراسته إلى صنفين من الدراسة تبعا لاختلاف التصورات :

دراسة نظرت إلى الألفاظ و انتصرت لها و عنيت بصياغتها و حسن اختيارها وجمالها و جودة سبكها كمكمن من مكامن الإعجاز للنص القرآني. و من أولئك العسكري الذي يرى أفضلية اللفظ على المعنى و يرى أن المعاني يعرفها العربي والعجمي و القروي و البدوي و إنما الحذق في جودة اللفظ و صفائه[1]. و دراسة نظرت إلى المعاني و جعلتها لب الإعجاز و مستقره، و نسبت إليها كل فضل في صناعة الأدب و نقده.

و هكذا "نشا البحث في إعجاز القرآن و ترعرع في جو الخلاف و الخصومة العنيفة حول قضية اللفظ و المعنى فغلبت عليه النظرة الجزئية أو التجزيئية... كانت هذه النظرة التجزيئية سبباً في إغفال جانب هام من بلاغة القرآن الكريم هو وحدة البناء الذي يجعل السورة من القرآن بنية محكمة متناسبة المعاني و المباني و المطالع والمقاطع"[2].

---

[1] - أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص58.

[2] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص 06.

و سيطرة هذه النظرة الجزئية على هؤلاء الدارسين جعلتهم أيضا يغفلون أن "القرآن أعلى منازل البيان و أعلى مراتبه... جمع وجوه الحسن و أسبابه و طرقه وأبوابه من تعجيل النظم و سلامته و حسنه و بهجته و حسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان و وقوعه في النفس موقع القبول و تصويره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان و دلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة و سناء و رفعة"[1]. و إن كان هذا شانه فمن أين يتأتى الحسن لألفاظه دون المعاني أو لمعانيه دون الألفاظ.

و من جو الخلاف نشأ طرف ثالث اعتدلت نظرته فكانت وسطا بين النظرتين فلا هي ركزت على اللفظ دون المعنى و لا هي اعتبرت المعنى دون اللفظ، بل قاربت بينهما و أشارت إلى مزايا كل منهما و إسهامه في بناء النص.

إن مرد الخلاف القائم بين اللفظ و المعنى لم يكن مبررا إلا بتلك الخلافات الكلامية التي بسطت نفوذها حتى على الدراسات الخاصة بالقرآن فتعصب المعتزلة للفظ و تعصب الأشاعرة للمعنى، منقادون في ذلك إلى أفكارهم و آرائهم المجانبة للصواب، إن التجرد يقتضينا أن ننظر إلى النص من كافة مستوياته اللغوية و النحوية و البلاغية عسى ينكشف لنا شيء من أسرار الإعجاز القرآني.

إن القول باللفظ يقودنا إلى أن القرآن جاء بألفاظ غير التي عهدها العرب وبذلك باين نظمهم و عجزوا عنه، و الواقع غير ذلك، فجل الذين نظروا الى القرآن خصوصا أولئك الذين تلقوه غضا طريا رأو ألفاظه نسجت من الحروف التي ألفوها و على الوجوه التي عهدوها، حتى أنهم قالوا"لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ"[2]، و مع ذلك لم يثبت أنهم أتوا بنسج أوقفوه أمام النسج القرآني و ضاهوه به.

و كذلك القول بالنسبة للمعنى، فما يظن ظان أن الوليد بن المغيرة حين سمع من الرسول لم يكن سمع قبل من القيم النبيلة و المعاني السامية ما سمع، و التاريخ قد نقل إلينا من ورائع الحكمة و فصل

[1] - أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 192.
[2] - سورة الأنفال، الآية 31.

الخطاب و أنواع الأمثال و الوصايا ما يشهد بذلك، غير أن الذي بهر الوليد و غيره هو التناسب بين الألفاظ و المعاني، و تلك الروح التي تشع من آيات القرآن.

يرى ابن الأثير أن سبب اعتناء العرب بألفاظها و معانيها هو أن تكون لها حظوة عند المتلقي، و المعاني عندهم أقوى و أكرم و ارفع قدرا، و الألفاظ عناوين المعاني و طريقها إلى إظهارها، لذلك اهتموا بها و بالغوا في تحسينها و هذا الاهتمام بالألفاظ التي تحسن المعاني و تظهرها في صورة بالغة.

إن من بين الأسس التي إرتأها الموضوعيون للجمال؛ أن تتوافق في النص الأدبي الأجزاء، أي أن يأتلف المعنى مع المبنى فيكون اللفظ القوي للمعنى القوي و الضعيف للضعيف، و هم بذلك يؤكدون قوة العلاقة بين اللفظ و المعنى، " فعلاقة اللفظ بالمعنى علاقة تكامل و تآزر، لا علاقة تفاضل و امتياز...و هو ضرورة حيوية بالنسبة إلى كل من اللفظ و المعنى على السواء"[1].

و قد أجمل ذلك ابن جني في مبحث خصصه للرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ و إغفالها المعاني، يقول: "و اعلم أن هذا الباب من اشرف فصول العربية، و أكرمها، و أعلاها، و أنزهها، و أذا تأملته عرفت منه و به ما يؤنقك، ويذهب في الاستحسان له كل مذهب بك، و ذلك أن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها و تهذبها و تراعيها، و تلاحظ أحكامها، بالشعر تارة و بالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها و تتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها، و أكرم عليها، و أفخم قدرا في نفوسها.

فأول ذلك عنايتها بالألفاظ. فإنها لما كانت عنوان معانيها، و طريقا إلى إظهار أغراضها، و مراميها، أصلحوها و رتبوها، و بالغوا في تحبيرها و تحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، و اذهب بها في الدلالة على المقصد"[2].

---

[1] - حمدي محمد بركات، سر العربية و بيانها، دار البشير، ط1، 1408هـ/1988م، ص 135.

[2] - ابن جني: الخصائص، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،لبنان،ط2، 1424هـ/2002م ، ص 237.

و نجد هذا عند الرماني في نظرته للبلاغة إذ يرى أنها ليست " في إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان احدهما بليغ و الأخر عيي، و لا البلاغة أيضا في تحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى و هو غث مستكره و نافر متكلف، و إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[1].

إن نحن أنعمنا النظر في بعض أسرار الإعجاز الصوتي للفظة القرآنية داخل التراكيب، بان لنا الشيء الكثير من القيم التي أدركها البلاغيون المحدثون و القدامى، وفي مقدمتهم الجرجاني و الزمخشري، فقد تحدث الجرجاني على أثر التركيب في إظهار اللفظة و رقتها و جزالتها و خفة لفظها، إذ المعنى هو الذي يقتضي نوعا من التركيب موافقا للرسالة التي يريدها صاحب القول، جاء هذا الحديث في غضون شرح و عرض الجرجاني لنظرية النظم، ذكر خلالها أن " الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، و لا من حيث هي كلم مفردة، و أن الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما شبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظة"[2]

و لئن قال القدماء بأولوية المعنى بإعتباره منطلق اللفظ و المحرك له و المتولي سياسته و تدبيره، فليس معنى ذلك أنهم يغضون من شان اللفظ و يبخسونه حقه، وينكرون فضله و مكانته في البيان.

إن للغة مستويات دلالية متعددة، منها الدلالة الصرفية و النحوية و المعجمية والصوتية و الإيحائية، لذلك لا يمكن إيقاف الألفاظ على نوع واحد من المعاني، اذ اللفظ معنى و صوت، أما الصوت فحسنه يكون باعتدال حروفه و حسن وقعها على السمع، أما المعاني فإن لم تكن جديدة؛ فالتعبير عنها بالأسلوب الجميل يزيدها جمالا، و من هذا نركز على الدلالة الإيحائية باعتبار اللفظ القرآني موح لمعناه بجرسه.

إن إعجاز اللفظ القرآني بتصويره المعنى بجرسه ملحظ تنبه إليه الكثير من الدارسين المحدثين، ومن الذين تكلموا عن هذا المظهر سيد قطب، و من الأمثلة التي أعطاها عليه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ إِنَّكُمْ أَيُّهَا

[1] - الرماني: بيان إعجاز القرآن. ص 76.
[2] - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 90.

الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ .لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ"[1]. قال: " لا ندري احد ما شجر الزقوم... على أن لفظ الزقوم نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدببا يمزق الأكف- بله الحلوق- و ذلك في مقابل السدر المخضوض و الطلح المنضود"[2].

فليس اللفظ بمعزل عن الإيقاع، حتى يكون الإيقاع بمعزل عن المعنى، لذلك وجب علينا ترك الخلاف القديم المتجدد بين اللفظ و المعنى لنحاول إدراك الارتباط بين المعنى و الإيقاع، لأن الدراسات النقدية تعددت إشكالية المفاضلة بين هذين العنصرين إلى اللحمة الرابطة بينهما.

2 ـ الإيقاع و علاقته بالمعاني:

إن الوظيفة التعبيرية في الخطاب الأدبي تأتي من دلالة للألفاظ و العبارات، و لا تنتهي عند هذا و حسب، بل تتعداها إلى مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني، وهي الإيقاعية الموسيقية للكلمات و العبارات[3].

و إذا كان هذا شان الخطابات الأدبية على وضعيتها، فان الخطاب القرآني الذي يتصف مصدره بالكمال، نجده في دلالة ألفاظه و عباراته يبلغ القمة، و نجده في إيقاعه أيضا؛ يخرج عن المألوف من كلام العرب، فمن جمال الأسلوب أن وقع فيه قدر عظيم من الآيات الموزونة موسيقيا تطمئن إليها الأسماع و تنفذ إلى القلوب.

و المتأمل لما كتب عن الإيقاعية القرآنية يحس إحساسا عميقا بعمق هذا الإيقاع و روعته و تميزه، و يكفيه في ذلك أن يسال الدكتور صبحي صالح ليقول له: "انه متنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه و ألحانه"[4]. و النفس بطربها الطبيعي و ميلها الفطري لكل نغم و صوت حسن، جعل الله لها في القران ما يستهويها و يأسرها ويؤثر فيها،

---

[1] - سورة الواقعة، الآية51-52.
[2] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج06، ص3465.
[3] - ينظر. سيد قطب: النقد الأدبي-أصوله و مناهجه، ص 32 و ما بعدها.
[4] - صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط13، 1981م، ص 334.

فجعل في القرآن من الإيقاعات ما لا تحس النفس معه بالرتابة أو الملل.

و هذا التنوع الجلي للإيقاع في القرآن يجب ألا نحمله على أساس القيام بالوظيفة الشكلية التنغيمية و كفى، بل هو بالإضافة إلى ذلك يؤدي دوره في تجسيد المعاني وإحكام التراكيب، فالقرآن سكب معانيه في تلك القوالب الإيقاعية كي يصل المتلقي إليها، بل كي تصل المعاني للمتلقي مع انسياب الإيقاع إلى نفسه.حيث يعرف الجاحظ للكلام البليغ بقوله: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه. فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق، من معناه إلى قلبك"[1].

و المعاني كما يجسدها الإيقاع تجسدها الصور و الظلال، و يجسدها الخيال، وقبل ذلك تجسدها الألفاظ، فلو " استعرضتا القرآن من بدايته إلى ختامه فسنجد طريقة خاصة بالتعبير الفني تكسو أسلوب القرآن حتى يصطبغ بألوانها البراقة الزاهية، فانك لا تجد فيه بيانا مجردا لمعنى ذهني أو حالة نفسية أو حادث مادي أو مشهد منظور أو طبيعة آدمية أو موقف من مواقف يوم الحساب، بل تجده عبر عن كل منها بصورة محسوسة متخيلة حاضرة شاخصة، صورها بالألوان أو الحركات أو الإيقاع، و مزج بها جرس الكلمات و نغم العبارات"[2].

فالإيقاع حاضر في كل المعاني التي يعبر عنها القرآن، دنيوية كانت أو أخروية، قصصاً كانت أو تقريراً لحقائق كونية، و هذا إن دل على شيء إنما يدل على الأثر النفسي الذي يقصده القران من خلال توظيف هذه الطاقة الكامنة في اللغة.

إن انكباب العلماء على القرآن دراسة لأساليبه و طرق تراكيبه و تعبيراته لم يكن لمجرد التأثر الظاهري الذي يحدثه القران في المتلقين؛ بل ذلك لما كان يتدفق إلى أغوارهم من المعاني التي لا تنفد، فوجدوا في العبارة الواحدة ما لو إجتمعت عليه أقلام لاستنفاده ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، و شاهده التفاسير الجمة التي ما فتئت تزداد يوما بعد يوم.

[1] - الجاحظ: البيان و التبيين، ج1، تحقيق: حسن السندوبي، دار المعارف، تونس، 1990م، ص 108.

[2] - نور الدين عتر: القرآن الكريم و الدراسات الأدبية، ص 195.

لقد قصد الذين بروا أقلامهم لمعارضة القرآن إلى شكل القرآن في ترتيب آياته وتراكيبه، و طفقوا على منوالها يرتبون كلماتهم و يصوغون تعابيرهم التي تمجها الأسماع لما فيها من التكلف المذموم، و ما فيها من الهراء و الكلام الذي لا معنى له إلا أن أصحابه و من يصدر منهم تجردوا من فطرهم اللغوية، و قادهم جنونهم إلى معاكسة سنن الكون و مخالفة تيارها.

و السير تطلعنا عن أخبار من تلك الشاكلة، من أولئك الذين إدعوا النبوة فجاءوا بكلام لم يسلم لهم ظاهره و لا باطنه، فكان ظاهره محاكاة للقرآن و باطنه وحيا من الشيطان، فهذا مسيلمة يقول مكذبا أولئك الذين قالوا بأن الله صرف العرب وسلبهم القدرة على معارضة القران: " إنا أعطيناك الجماهر. فصل لربك و هاجر. إن شانئك هو الكافر."[1]، و كان يقول أيضا: " و المبتديات زرعا. و الحاصدات حصدا. و الذاريات قمحا. و الطاحنات طحنا. و الخابزات خبزا. و الثاردات سردا. و اللاقمات لقما. أهالة و سمنا. لقد فضلكم على أهل الوبر. و ما سبقكم أهل المدر. ريقكم فامنعوه. و المعتر فأووه. و الباغي فناووه. "[2].

و كثير من هذا الكلام مما قاله هو و من إدعوا النبوة معه كسجاح و غيرها، لا نريد إثقال البحث به لسخافته و ركاكته، و هو إن ابرق ظاهره، إن فتشت في باطنه وجدته كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا"[3].

و قد " جنح مسيلمة في خرافاته إلى ما حسبه نظاما موسيقيا أو بابا منه، و طوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة و أساليبها و محاسنها و دقائق التراكيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات و أجراس الحروف دون ما عداها"[4]، و أيقن أسر الإيقاع للمتلقي، فعمد إلى أوزان القرآن يحاكيها، "وواضح في ذلك كله السطو على القرآن و التشابه معه في الوزن والصورة و الاتفاق في القالب، و مع ذلك لا يمكن أن يقال في شيء

[1] - فخر الدين الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط1، 1985م، ص 81.
[2] - أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 115.
[3] - سورة النور، الآية 39.
[4] - الرافعي: إعجاز القران و البلاغة النبوية، ص176.

من هذا أنه بليغ، فضلا عن أن يكون معجزا، ذلك لأن شرط البلاغة و الفصاحة من حيث صحة المعنى واتساق الكلمات و قوة التأثير لم تتحقق، و هي عماد الإعجاز في النظم"[1].و متى لم تجتمع لنص تلك المقومات كان إمكان الإتيان بمثله غير مستحيل.

القرآن لم يقصد الناحية الشكلية منه دون جانبه المعنوي، و لا إلى جانبه المعنوي دون جانبه الشكلي، إنما الكل فيه مراعى، إذ لا تجد معنىً إلا وراعك و أعجبك طريق وروده و شكل أسلوبه، كما يروعك إيقاعه، ولا تجد أسلوبا راقيا إلا دفق في نفسك من المعاني ما تحس معه الجلال و الكمال.

و العرب أول ما لامس القرآن آذانهم حتى خلص إلى قلوبهم من الأثر و عقولهم من المعاني ما جعلهم يشهدون له بعلو الشأن، " و إذا كان المعنى هو الذي يستهدفه القرآن، فإنه لا يهمل الجرس، إذ من هذين يكون الانسجام بين الفكرة المقصودة واللفظ المعبر عنها"[2]، و القرآن إنما جاءت معانيه موجهة للعرب و غيرهم، هادية لصراطه المستقيم.

إن وجود الإيقاع في القرآن لا يمكن حصره بحال في الجمالية الصوتية التي يتميز بها، فسلامة الألفاظ من التوعر و سلاستها و رشاقتها و تآلفها لا شك يكون له قدر كبير في إيصال المعنى إلى المستمع أو القارئ، و يقول الجرجاني في ذلك، "إذا كان النظم سويا و التأليف مستقيما، كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك"[3]، و هو خير من تكلم عن مبحث اللفظ و المعنى بإجماع الغويين.

إن الألفاظ مفاتيح المعاني، و لولاها لما وجد إلى المعاني سبيلا، و لظلت راكدة في الذهن لا تجد الوعاء الذي تخرج فيه، " لذلك فالشفرات الإيقاعية على إختلاف جهات تأتيها تمتلك مزية الإنقذاف في نفسية المتلقي، و ذلك حاصل لها بفضل ما تقام عليه من تناسق و اعتدال و توازن و انسجام، فإذا صادفت تلك الوفرة الإيقاعية الطبع

[1] - عبد الرءوف مخلوف: الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن، ص206.
[2] - المرجع نفسه، ص 224.
[3] - الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص210.

السليم و الذوق الذائق أحدثت في الذات المتلقية استعداداً تأويلياً خاصاً، يقوم على نشاط الإنفعال المحمس على هجوم النفس على مكامن المعاني و الصور والخيالات"[1].

و الإيقاع من الأمور الذوقية التي يختلف الإحساس بها على حسب نفسية الذائق، لذلك يشترط في تلقيه سلامة الفطرة و إقبالها، فطريقة الاستهواء الصوتي في اللغة أثرها طبيعي في النفس متى خلصت من أهوائها و شهواتها، " فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه التي يخاطب بها كل نفس تفهمه، و كل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار و الاستجابة"[2].

إن النفس " هي مركز إستقبال الآيات بإيقاعها، و لكن هذا الإيقاع يدرك بقدر درجة حس المستمع الفطري و تذوقه الطبيعي و مدى استيعابه، ليتكشف له بعض تلك الأسرار الكامنة في القرآن"[3]، و لعل صفاء ذهن سيد قطب و استعماله لفطرته و سلامتها هو ما قاده إلى الإفاضة في هذا الجانب، فانفتحت له فيه نوافذ انغلقت على غيره، و فاضت له من المعاني ما غاضت عن كثير من الدارسين.

و لعله الشيء ذاته الذي جعل عمر السلامي يتفطن لروعة الإيقاعية القرآنية، ويدرك أن الخصائص الفنية التي تميز النصوص الأدبية عن بعضها لا تكمن في الإيقاع و حسب، و إنما فيما وراء الإيقاع، فيقول: " للإيقاع الصوتي بمفرده تأثير، و لكن هذا التأثير لا يسمى فنيا أو غير فني حتى يلتقي الإيقاع مع المعنى"[4]، أما ما وجده في القرآن فهو إيقاع فني يطلب المعنى فيه الإيقاع، و يوحي الإيقاع فيه بالمعنى.

إن مما استعمله القرآن للاستهواء الصوتي جرس الحروف و نغم الكلمات و إيقاع الجمل و الآيات، و قصد أن تجيء آياته موقعة توقيعا بل و فوق ذلك أن تتنوع هذه الإيقاعات من موضع إلى آخر، و كأن

---

[1] - عميش العربي: خصائص الإيقاع الشعري ص 152.
[2] - مصطفى صادق الرافعي: المرجع السابق، ص179.
[3] - بوداود حليمة مدرس: معجزة الحروف، ص 135.
[4] - شكري عياد: موسيقى الشعر العربي، ص 145-146، نقلا عن: ابتسام حمدان: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، دار القلم العربي، سورية، ط1، 1418هـ/1997م، ص40.

القرآن قصد هذه الخاصية فقط دون غيرها من الخواص، " و مع ذلك فإن الباحث لا يستطيع أن يغفل دور الإيقاع في توضيح المعنى و توسيعه، و إخراج ما فيه من مفارقات لا يمكن أن تظهر بغير هذا الطريق، وهذا ما يؤكد أن المعاني التي يكتنفها الإيقاع هي معان إيحائية"[1].

و هذا يقودنا إلى التسليم أن " بناء الأصوات في الكلمة له ارتباط وثيق مع ظلال المعاني في أنفسها، و مع إشعاع المشاعر الوجدانية المنبثقة عن التجربة الشعرية"[2]، ونحن نوقن تمام الإيقان أن القرآن ليس وليد تجربة شعرية أو تراكم خبرات أدبية، إنما هو من الله الذي أنزله وجعله للغة إماماً، بعد إن ظنت العرب أنها إنتهت إلى غاية اللغة في بناءاتها الشعرية وتراكيبها اللغوية.

إن غاية ما يسعى إليه الإيقاع هو تحقيق التأثير والإقناع وبحدوث هذا المقصد يسهل على المتلقي المشاركة في استخراج المعاني الكامنة في النص.

المبحث الثاني:الأساليب الإيقاعية في جانبها المعنوي

1- تآلف الحروف و إسهامها في بلورة المعاني:

في القرآن خاصية لافتة للانتباه؛ و هي خلوه من التنافر في بناء كلماته، فأصواته كلها قائمة على الائتلاف من جهة، ومن جهة أخرى على قمة التناسق بينها وبين المعاني التي أريدت لها، وتلك ميزة إنماز بها القرآن الكريم فلم يقاربه في بناءه الصوتي نص آخر .

وهذه الظاهرة واضحة جد الوضوح عميقة كل العمق في بناء القرآن الفني، وعندما نتحدث عن الائتلاف بين الحروف، فأننا نريد به الكلمة فالعبارة فالآية فالسورة، والقرآن الكريم مؤتلف كله، لا ينبو فيه تعبير ولا يسمج، " والكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس، لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة"[3].

---

[1] - ابتسام حمدان: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، ص128.
[2] - المرجع نفسه، ص154.
[3] - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص181.

ومراعاة الجانب الصوتي من القرآن الكريم أمر قد بيناه في مباحث سالفة، وهو إضافة إلى ذلك" يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض ونوع التأثير الذي يراد إثارته في نفوس المخاطبين"[1]، لذلك فليس إختيار الألفاظ والتعابير في القرآن فقط لأداء المعاني المجردة التي تفهم من الكلمات،وإنما تختار أيضاً لأداء معان أخرى من خلال أجراس حروفها وحروف تراكيبها، فيختار الشكل الدلالي بأفضل أداء صوتي ممكن، للتعبير عن أغراض النص .

إن سر الجمالية الإيقاعية للنص القرآني يكمن في ذلك التآلف الذي يطبعه، والذي تحس معه المعاني من غير حاجة إلى الدلالات المعجمية للكلمات، فينتابك الفرح أحياناً والحزن أخرى وتعتريك الخشية تارة والرهبة أخرى كما قال الخطابي" إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى؛ ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق وتقشعر منها الجلود وترتعد له القلوب"[2].

وليس هذا داعيا إلى التخلي عن المكونات الأخرى للنص، واعتماد الإيقاع كمعيار أسا س لفهم النص أو نقده، فالنص وحدة متكاملة من أسلوب وإيقاع وصور وتعابير وغيرها، تجتمع لتعطي الدلالة العامة للنص، وإنما الإيقاع واحد منها يساهم في تجلية المعاني.

وهكذا "نستطيع أن نقول في غير تردد أن للحرف في اللغة العربية إيحاءا خاصا فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة عن المعنى؛ يدل دلالة إتجاه وإيحاء،ويثير في النفس جواُ يهيئ لقبول المعنى ويوحي به"[3]. و قد يكون إلى جانب ذلك لهذا الترداد جرسا طاغيا على النص" فيتفوق

[1] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن ص 307.
[2] - الخطابي،: بيان إعجاز القرآن. ص64.
[3] - محمد المبارك: خصائص العربية و منهجها الأصيل في التجديد و التوليد، نقلا عن. السلامي، عمر: الإعجاز الفني في القرآن، ص219.

على منطق اللغة، فيخرج عن قيد الصوت المحض إلى دلالة تحرك المعنى و تقويه"[1].

إن حروف العربية مع ما لها من خصائص؛ كالجهر و الهمس و الانفجار والاحتكاك و غيرها من الخصائص التي تسهم في تنويع إيقاعيات النصوص القرآنية والسور باختلاف موضوعاتها، لها أيضا جانب لا يمكن إغفاله، ذلك أن " لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة"[2].

إننا حين نمعن في الخصائص الموسيقية للتعابير القرآنية، نجد الحروف بما إمتازت به من دقة الترتيب وحسن التوزيع وسلاسة المخارج، تفيض على الكلمات والعبارات من إحكام السبك ومتانة الإتساق، ما نحسب معه أنها " جملة واحدة في نفس واحد قد أديرت معانيها على ألفاظها في لغات العرب المختلفة، فلبستها مرة واحدة "[3]، وليس ذلك للعرب فقط، بل إلى غيرهم ممن أحسوا موسيقى القرآن وانسكبت في نفوسهم.

إن وجود ألفاظ بعينها وكلمات دون مرادفاتها في سياق النص القرآن له دلالته وإن خفيت، وإنما هي مقصودة بأصواتها وأجراسها لتلاءم المعنى وتحدث التأثير، والمتأمل في سياقات القرآن وتراكيبه يجد أن" جرس الألفاظ وبنيتها هما اللذان يبدوان في التأثير، وعملية التأثير هذه تعمل بدورها بطريق غير مباشر في المعاني التي تفهم منها الألفاظ"[4].

وقد لاحظ علماؤنا مناسبة الحروف العربية لمعانيها، ولمحوا في الحرف العربي قيماً تعبيرية موحية، فلم ينشغلوا بأصوات الحروف

---

[1] - ماهر هلال: الأسلوبية الصوتية بين النظرية و التطبيق، مجلة آفاق عربية، العدد: 12، 1992م، ص 18.

[2] - المرجع نفسه، ص 18.

[3] - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص237.

[4] - عبد الرحمن ممدوح: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص11.

عن جوهرها، وعلى أن كل حرف منها يمثل صوتاً، " وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنه معبر عن غرضـ وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص مادام يستقل بإحداث صوت معينـ وكل حرف له ظل وإشعاع إذا كان لكل حرف صدى وإيقاع"[1].

وبالتالي فتكاثف نوع واحد من الحروف كالمجهورة مثلا في نص له دلالته التي تقرب المعنى وتوحي به وتسهم بقدر كبير في إحداث التآلف وربط محتويات النص بعضها ببعض، ومن خلال الذي ذكرنا نلاحظ أن الجوانب الإيقاعية لها تأثيرات سياقية في إستشفاف الدلالات والمعاني.

لقد استخلص الدارسون والتمسوا في القرآن ألفاظ عديدة دلت بأصواتها وحروفها على معانيها، من هذه الكلمات: يصطرخون، إثاقلتم، عسعس، تنفس. ولاشك أن كل كلمة تستقل بحروف معينة تكسبها ذائقة سمعية ليست لغيرها من الكلمات، مما يجعل أثرها في النفس مختلفاً عما سواها من مرادفاتها، وإن إتحدت معنى.

فإذا نظرنا إلى كلمة متشاكسون من قوله تعالى: "ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ..."[2]، لا تجد كلمة تسد مسدها و تؤدي معناها، لأنها" تعتبر لغة عن المخاصمة والعناد والجدل في أخذ ورد لا يستقران، وقد تعطي بعض معناها الكلمة متخاصمون، ولكن المثل لم يستعمله حفاظا على الدلالة الصوتية التي جمعت في الكلمة حروف الأسنان والشفة في التاء والشين والسين تعاقبان ...فأعطت هذه الحروف مجتمعة نغماً موسيقياً خاصاً حمَّلها الكثير من معنى الخصومة والجدل والنقاش"[3].

أن الكلام في نظر الخطابي إنما يحصل بأشياء ثلاث يقوم عليها: " لفظ حامل، ومعنى به قائم، و رباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن

---

[1] - عبد الرحمن ممدوح: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، ص 23.

[2] - سورة الزمر، الآية 29.

[3] - محمد حسين الصغير: الدلالة الصوتية في النص القرآني، من الشبكة الالكترونية، موقع www.al-hodaonline.com و موقع www.balagh.com

وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة ،حتى لا ترى شيء من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه "[1]، فشرف الكلام أن تكون حروفه وألفاظه عذبة غير مستوحشة، وهو يقوم بذلك، وشرفه أيضا في شرف معانيه، ويحوز صدارة الشرف في المبنى والمعنى متى إجتمع لهالاثنين معاً، فارتبط الإيقاع بالمعنى ودل كل منهما على الآخر.

القرآن الكريم يستعمل الألفاظ ويختار أصواتها لتوافق المعاني المرادة لها وتناسبها فكان بذلك " إختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب حقلا يانعا في القرآن لا للدلالة الصوتية فحسب بل لجملة من الدلالات الإيحائية واللغوية والهامشية"[2]. وهذا شأن القرآن الكريم في تخير ألفاظه وترتيبها.

إن تمكن الإيقاع الذي تحدثه الآيات داخل العبارة في النفس بنبعث من العبارة نفسها " لما لها من قدرة باللفظ الموضوع بدقة حروفه وقوة تأكيدها على المعنى، وبما يحمله الصوت من مخرجه المتنوع"[3]، فتجتمع بذلك الأصوات المؤتلفة السلسة والمعاني الشريفة، وهو ما عبر عنه في التراث البلاغي بشرف المعنى وشرف المبنى.

إن تنوع الإيقاع في كافة مستوياته يساهم إسهاما كبيرا في إخراج المعاني وإيصال المتلقي إليها، والصوت المفرد على ماله من أهمية في إحداث النغم الخاص بالعبارة القرآنية، نجد القرآن " يستخدم هذه الوسيلة البلاغية بإقتدار رائع وإعجاز معجز، فالصوت المفرد يختار بعناية وتصاحبه أصوات أخرى قد تكون متقاربة المخارج إن إحتاج الموقف ذلك، وقد تكون متباعدة المخارج إن كان التباعد أدل على المعنى وأكثر تصويراً له "[4].

ومن المعاني ما توصله عبارة واحدة أو آية واحدة يعمد القرآن فيها إلى تركيز المعنى من خلال أجراس حروف معينة يوحي جرسها لا بمعنى واحداً؛ وإنما بمعان كثيرة، كلها تصلح لأن تكون معنى للآية.

---

[1] - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 27.
[2] - محمد حسين الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، ص 192.
[3] - بوداود حليمة مدرس: معجزة الحروف، ص 140.
[4] - محمود احمد نجلة: لغة القرآن في جزء عم، ص 348.

والحروف بصفتها أصوات إنما هي دوال على معاني، " ولو نظرنا إلى الأصوات هذه باجتماعها و إقترانها وبما تمتلكه من خصائص صوتية متميزة ..وبما لهذه الأصوات من معان ومدلولات لكان لنا الشيء الكثير، مما يدخل في القيمة الإيقاعية للنص الأدبي شعراً كان أم نثراً"[1]، ولذالك نجد " إن المنشئين يسعون دائما إلى الإهتمام – إلى جانب المعاني – بالأصوات، فيقيمون بينها علاقات تؤل إلى إيقاعات محددة "[2]، وهذا جانب من الجوانب التي تفرض تعدد إيقاعات النص الواحد، إذ لكل معنى طريقه الخاص ومسلكه المناسب.

2- تناسب نوع المقاطع مع المعاني:

مما مر بنا في الفصل السابق أن من مصادر النغم و الإيقاع في المتن القرآني المقاطع باختلاف أنواعها، و إن كانت هذه المقاطع تؤدي دورها الشكلي من خلال توازنها و ترتيبها في الآيات محدثة إيقاعا يلاءم جو الآية، و يجعلها سهلة النطق واقعة في النفس مؤثرة فيها، فإنها إلى جانب ذلك تؤدي وظيفة دلالية، إذ تسهم بقدر كبير في تقريب المعاني و التعبير عنها، فلـ"ترتيب المقاطع و توزيعها في نظم الآيات وظيفة جمالية و دلالية في آن واحد، إذ تسهم من جهة في جعل الصورة السمعية لها متناسبة الأجزاء معتدلة التركيب، و تسهم من جهة ثانية مع العناصر الدلالية الأخرى في التعبير عن معاني الآيات و إيضاح ما يكتنفها من الدقائق الدلالية و ذلك باختيار ما يناسب المعنى من أنواع تلك المقاطع"[3].

و حينما نقر بمجيء المقاطع مناسبة لجو الآية، فإننا استلزاما نقر بصلتها بالمعاني، فيكون لكل نوع من المقاطع مكانها المناسب و السياق الذي تصلح فيه، "فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، و من هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب نوعاً من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة، والعكس صحيح"[4].

---

[1] - طالب محمد الزوبعي، ناصر حلاوي: البيان و البديع، ص 142.
[2] - المرجع نفسه، ص142.
[3] - احمد أبو زيد،: التناسب البياني في القرآن ص321.
[4] - محمود احمد نجلة،: لغة القرآن في جزء عم، ص357.

حتى أننا نجد "الاختلاف في المدى بين المقطعين الطويلين من نوع "ما" و "من" ينتج عنه في نظرنا...فارق كبير بينهما من حيث إعطاؤهما لإيقاع الكلام سمة دلالية و نوعاً من الانسجام مع المعنى"[1].

إن للمقاطع قيم تعبيرية مختلفة لا يمكن مقاربتها إلا بتحليل النصوص و الآيات، ذلك أنها لا تظهر أول ما تظهر للقارئ أو السامع، إذ عليه الكشف عنها بعد التنقيب و التمحيص، و لأنها تكون أحيانا مغمورة في بعض الأساليب الموسيقية الجلية في النص مما يمنع استباقها إلى الذهن.

و الموسيقى الداخلية المتبلورة عن أنواع المقاطع الصوتية في الآية القرآنية نجده غالبا مناسبا لسياقات التعابير و الأفكار، جامعة بالمعنى موحية به أحيانا، مشاركة الظواهر الأسلوبية الأخرى في إبراز فنية النص، الذي تختار فيه أحسن التراكيب بتناسق تحسن معه الإيقاعية الموسيقية للملائمة للمواضيع و المعاني.

و كما أن تناسق الحروف و تآلفها يسهم إلى حد كبير في التعبير عن المعاني الكامنة في النص، فإن للمقاطع الصوتية و تآلفها و حسن ترتيبها دور لا يقل عن ذلك، فكلاهما منبع للجمال و كلاهما يؤدي وظيفة دلالية، فـ " للمقاطع الصوتية على اختلاف أنواعها وظائف دلالية و صلة بالمعاني في نظم الآيات، و قد يعدل القرآن في صياغة بعض الآيات عن التركيب المعتاد إلى تركيب خاص ليجعل المقاطع مناسبة للمعنى"[2].

3- الفاصلة و المعنى:

في القرآن وجهاً من الأسلوب خرج به عن مألوف العرب، نقض به عاداتهم وخالف به سننهم، تلك هي الفاصلة، وهذا هو شأن الإعجاز، إذ ما لفت العرب من أنواع الكلام إلاّ الشعر بأوزانه وقوافيه والنثر بأسجاعه وفقره، " فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها

[1] - محمود المسعدي: الإيقاع في السجع العربيص141.
[2] - احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص325.

منزلة في الحسن تفوق بها كل طريقة"[1] فجاء موقعاً مموسقاً لكن ليس إيقاع الشعر ولا إيقاع النثر.

وإن إختلفت وجهات النظر حول القرآن أهو شعراً أم سجع يبقى الحكم والفيصل في ذلك أسلوبه، أما الشعر فالقرآن ليس من أعاريضه، وأما السجع وإن كان فيه جزء منه إلاإن الدارسين تنزيهاً للقرآن أسموا ما ورد فيه على شاكلة السجع فواصلا،تمييزاً له عن سائر القول ولأن الفواصل فيه تتبع المعاني وليس العكس، فـ"ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في قرارها مطمئنة في مكانها غير نافرة ولا قلقة، ولكن الأفهام قد تتضائل عن إدراك سرها "[2].

فلا يمكن بحال الحكم على ما ورد في القرآن من الأوجه الأربعين ونيفاً التي أوردها إبن الصائغ من تقديم وتأخير وحذف وذكر وخطف وصرف مالا ينصرف وإيراد أحد الجزاءين غير مطابق للآخر وتغيير بنية الكلمة وغيرها من الأوجه، لا يمكن إعتبارها فقط مراعاة للمناسبة الصوتية، وإنما للمعني في ذلك نصيب، يقل أو يكثر حسب السياق وحسب حاجة المعنى.

ومن المعلوم أن اللغة تقوم على وجهين: " وجه يتمثل في الأصوات المسموعة وما تستشعره الأذن من وقع الكلم ونغمها، و وجه يتمثل في الدلالة والمضامين التي تحملها الألفاظ"[3]، والقرآن إنما هو باللغة العربية، يقوم على ما تقوم عليه ولا يخرج عنها إلا في أساليب التركيب والتعبير، وهو " يراعي الظاهرة الأولى؛ وأعني بها ظاهرة الأصوات والأنغام كما يراعي الظاهرة الثانية؛ وأعني ظاهرة الدلالة، وما لم تؤدي رعاية الأولى للإخلال بالثانية فإنه يأخذ أسلوبه بها ما أمكن ذلك، ولعل هذا هو السر في أن كثيرا من الآيات جاء وهو متناغم على نسق واحد من حيث المقطع والفاصلة"[4]، هذا إن توافق الوجهان وتسايرا وكان الإيقاع بأجراسه وأنغامه حاملا للدلالات معيناً على المعاني، " أما حين يكون هذا الجانب ورعايته مما عساه أن يتحيف

[1] - الروماني،: النكت في إعجاز القرآن، ص111.
[2] - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص 204.
[3] - عبد الرءوف مخلوف: الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن ص238.
[4] - المرجع نفسه، ص 238-239.

الجانب الثاني فإن القرآن لا يذهب إليه ولا يتكلفه، وإنما يجئ طليقاً من كل قيد، متحررا من كل نغم، مترسلا في العبارة، تاركا لنفسه العنان بعد ذلك الترصد، مغايرا بين رؤوس الآية"[1]؛ أي الفواصل.

ومن الشبه التي يوردها من يرى في القرآن مراعاة المناسبة الصوتية بعيدا عن المعاني، أن الفاصلة واعتدالها قد يقدم على إقامة المعنى واعتداله أيضا، وحجتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى:'فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ ومُوسَى"[2] . وقوله تعالى:'فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وهَارُون"[3]. وذلك لمناسبة الفواصل في السور الواردة فيها، رغم الإتفاق الحاصل في أفضلية موسى عليه السلام على هارون.

وهذا كلام مردود من جهة أن القرآن إن كان يراعي هذا الجانب ويحسب له حسابه فلماذا يعدل عن هذه المناسبة في كثير من المواضع، فنجد تغيرا في أحرف الفواصل متى كان المعنى يقتضي ذلك، ومتى كانت تلك الفواصل لا تؤدي المعنى المطلوب والتأثير المرغوب.

ومن جهة أخرى يرى الزركشي أن" ما ذكروه من تقديم موسى على هارون في موضع وتأخيره عنه في موضع لأجل السجع ولتساوي مقاطع الكلام فمردود، بل الفائدة فيه إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معناً واحدا، وذلك من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتقوى البلاغة"[4]، وهذا الكلام للزركشي لا يكشف لنا سر توافق تغيير أسلوب القصة الواحدة المكررة مع مناسبة الفاصلة لفواصل السور في المقامين.

ومن الدراسات الحديثة نجد عبد الكريم الخطيب يخالف الزركشي فيما أورده، ويورد بدوره جانباً من المعنى يقف وراء الإختلاف الوارد في الآيتين، فيقول، أن موسى حين أظهر الآية التي جعلها الله له آمن السحرة ومن يشاهده، " فقال بعضهم " رَبِّ هَارُونَ ومُوسَى "، وقال بعضهم آخر: " رَبِّ مُوسَى وهَارُون "، وقال بعض ثالث: " رَبِّ

[1] - المرجع نفسه ، ص 239.
[2] - سورة طه، الآية 69.
[3] - سورة الشعراء، الآية 45.
[4] - الزركشي،: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 87.

الْعَالَمِينَ "، وقال بعض رابع وخامس وسادس، وهكذا قالوا جميعا مقولات تدل على الإيمان بالله، قالوها بأساليب مختلفة وبصور متباينة، جهر بها بعضهم وخافت بها من خافت، ومحال أن يكون جميعا قالوا قولا واحدا على صورة واحدة، فذالك مالا يتفق لهذا الجمع الكثير ولا يشهد له واقع الحياة، وكان الذي حكاه القرآن من مقولاتهم هو الوجه الغالب فيها، وهذا ما يتفق وصدق القرآن وإعجازه"[1].

وكلام القدامى وآرائهم لا تمنع المحدثين أن يبدوا ما تمخضت به أفكارهم وانكشف لهم، وفي هذا الشأن نجد الدكتور محمد حرير يقول مجتهداً " إن تقديم موسى على هارون ليس بالضرورة أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، فكذلك لهارون عليه السلام من الأفضلية. وهذا ما قال به القرآن العظيم ذاته. فبالإضافة لكون هارون عليه السلام هو أكبر سناً من موسى عليه السلام، نلفي القرآن العظيم يقول على لسان موسى عليه السلام: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي..."[2]"[3].

وبالنظر إلى الأقوال السالفة يتضح لنا أن دراسة إيقاع الفواصل وصلته بالمعاني ينكشف لنا ضمن خصائص أسلوبية عديدة يمتاز بها القرآن، وأن هذا الإرتباط الحاصل بينهما إيقاعا ومعان وأسلوباً لا يمكن تعديله بالنظر إلى آية أو مجموعة آيات في سياق واحد، وإنما بالرجوع إلى ما عداها من الآيات في المتن القرآني، باعتباره يفسر بعضه بعضا،كما تقف الأقوال السالفة الذكر شاهداً على المعاني الكامنة في الإيقاع القرآني عموما وإيقاع الفواصل على وجه الخصوص في القسم المكي.

و تأسيسا على ذلك نلفي " الفاصلة القرآنية قامت بأداء حظ من معنى الآية، ولم ترد البتة مستجلبة ولا قلقة، ولهذا نجد للتراكيب القرآنية من التلاحم والإتلاف وقوة التماسك مالا نجده في سائر كلام البشر، فإذا وقفت على تماثل أنغام الفواصل أحياناً وتقاربها أحياناً أخرى وعلى انسجام كل منها مع جرس الكلمات وإيقاع المقاطع في

[1] - عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن، دار المعرفة، لبنان،ط2، 1975م، ج2،ص 219.
[2] - سورة القصص، الآية 34.
[3] - محمد حرير: جمالية التلقي في القرآن من خلال بحوث الإعجاز، ص 219.

آياتها، أدركت أن هنا سر عظيم من أسرار الإعجاز البياني، يأسر قلوب البشر ويستعصي على عبقرياتهم"[1].

إن في القرآن أسراراً لا يقف عندها العقل البشري، رغم ما وصل إليه من النضج، ورغم ما انكشف له من أسرار الكون، والنقاد الدارسون للبيان القرآني يدركون ذلك جيدا، ومنه كان لهم منهج متفرد في التعامل مع النص القرآني، " فمن جهة قد إنطلقوا من دراسة التركيب اللغوي والبناء الفني للفاصلة من حيث إنسجام اللفظة مع أختها وحسن تجاورهما واتساق الحروف في اللفظة الواحدة والمنطق اللغوي الذي يؤلف بين مجموع الكلمات، ومن جهة أخرى؛ أفاضوا في التخريجات التي بها فهموا المعنى المتعدد في دلالاته وتأويلاته، مما يعطي النص القرآني إستمرارية قراءاته وتأويلاته"[2]،ليبقى ذلك تخليداً للمعجزة، وإلا متى أصبح من السهل كشف كل الأسرار كان ذلك إيذاناً ببطلان الإعجاز.

المبحث الثالث: الإستعمالات الإيقاعية في معاني النصوص القرآنية

1- الإيحاءات الإيقاعية للفظة القرآنية:

[1] - نور الدين عتر: القرآن الكريم والدراسات الأدبية، ص174.

2 - عبد القادر عبو: نظرية جمالية التلقي "مركزية القارئ"، من الشبكة الالكترونية، موقع:www.Awu-dam.org

إن من المعاني ما توصله عبارة واحدة أو آية يعمد القرآن فيها إلى تركيز المعنى من خلال أجراس حروف معينة يوحي جرسها لا بمعنى واحداً وإنما بمعان كثيرة كلها تصلح لأن تكون معنى للآية، و من المعاني ما نجده مغمورا في لفظة واحدة يوحي به جرسها النابع من أصوات حروفها.

و لقد استخلص الدارسون والتمسوا في القرآن كلمات عديدة دلت بأصواتها وحروفها على معانيها، من هذه الكلمات: كبكبوا، يصطرخون، إثاقلتم، عسعس، تنفس، ولاشك أن كل كلمة تستقل بحروف معينة تكسبها ذائقة سمعية ليست لغيرها من الكلمات، مما يجعل أثرها في النفس مختلفا عما سواها من مرادفاتها وإن إتحدت معنى.

إن الأسلوب القرآني يكرر الصوت بتشكيلات متجددة ينبع احدها من الآخر وبما لا يلفت الانتباه إلى تكرار معين، و إن كان يحقق نغمة التكرار و بشكلها الأجمل. و يكاد يطرد عند الباحثين أن من الألفاظ ما هو مصور لمعناه بجرس حروفه، و في ذلك لابن جني جهود حاول من خلالها ربط الفروق الصوتية بالمعاني و أقام على اجتهاداته من الشواهد ما أشفى به غليل كل باحث.

و إذا ما رمنا تلمس الأمثلة لذلك فإن في القرآن ما يصلح لبحث مستقل، غير أننا ننتخب من كل ذلك أمثلة نستشهد بها:

ا- يقول الله تعالى: " وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ "[1].

سياق الآية ينبأ عن يوم القيامة، حين يعرض الجمع على الله فتبدوا الجنة لأهل الجنة و تبدو النار لأهل النار، و قد عبر القرآن عن هذا الظهور بلفظة "برزت" برائها التي تحدث في القلب رجفة مع ما يزيدها التشديد من قوة، و عبر عنها بالجحيم وحروفها واضحة في السمع وضوح النار حين تتراءى لأهلها، بهذه الأصوات المجهورة؛

[1] - سورة الشعراء، الآية 91-95.

الباء و الراء و الزاي و الميم و الغين و الواو و الياء و النون عبر القرآن عن حال ذلك اليوم ليقذف بمعنى مفاده أن الأمور ستكون في هذا اليوم جلية واضحة، والجهر يعني إبداء الكلام الخفي.

و ما أردنا أيراه في هذا المثال لفظة "كبكبوا" من الفعل "كبكب" مضعف للمقطع (كب)، " و تكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى مثل: كفكف الدمع، و نظيره في الأسماء: جيش لملم؛ أي كثير، مبالغة في اللم، و ذلك لأنه له فغلا مرادفا له مشتملا على حروفه و لا تضعيف فيه مكان التضعيف في مرادفه لأصل الدلالة على الزيادة في معنى الفعل"[1]،و المعنى يقول الألوسي: "القوا في الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا في قعرها"[2]، أما سيد قطب فينقلنا إلى المعنى من خلال جرس الكلمة؛ يقول: "إننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم و تكفئهم وتساقطهم بلا عناية و لا نظام، و صوت الكركبة الناشئ من الكبكبة، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف. فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه"[3]، و الملاحظ لكلمة " كبكبوا " تكرار حرفي الكاف و الباء و " تكرار (الباء) بما فيها من قلقلة و انفجارية؛ يأتي مناسبا تمام المناسبة لمحاكاة ترى تلك الأفواج في النار مع محاكاة صوت الوقوع والاصطدام. و لعل الاحتكاك بين (الكاف) و (الباء) و تكرره قد يشارك في تلك المحاكاة؛ معبرا عن احتكاك تلك الأفواج بعضها ببعض، يحاكي هذا الفعل و الحدث سواء بسواء، حيث يشعر التالي أو السامع لهذه الكلمة (كبكب)، أنه يسمع الكب و إلقاء الكافرين في النار و كأنه يقول: (كب كب)"[4].

إن سياق الآية و جرس اللفظة يدل على تكرار الكب و تتابعه؛ كما يدل على الاجتماع و التراكم و التراكب لأهل النار بعضهم فوق بعض، و تتابع كبهم وإلقائهم في النار على وجوههم في دركات الجحيم

---

[1] - الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، مج8، دار سحنون للنشر و التوزيع، تونس، ص152.

[2] - الألوسي: روح المعاني، مج11، تحقيق: د. السيد محمد السيد و سيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، 1426هـ/2005م، ص 133.

[3] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج05، ص2605.

[4] - عبد الحميد هنداوي،: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، دار الثقافة للنشر،ط1، 2002، ص 63-64.

المتتالية. و هذا يأتي منسجما تماما مع سياق الوعيد و التهديد لهؤلاء الغاوين الضالين،

ب- يقول الله في سورة فاطر المكية: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ"[1].

و المعنى اللغوي لكلمة يصطرخون هو الصياح بشدة و جهد فـ" يصطرخون مبالغة في يصرخون لأن افتعال من الصراخ و هو الصياح بشدة و جهد، فالصطراخ مبالغة فيه؛ أي يصيحون من شدة ما نابهم"[2]. و هي بهذا المعنى خالية من أي اثر للمعاني الثانوية، و لا تصور لك مشهدا نفسيا لؤلئك القوم.

غير أن اللفظة القرآنية في أمثال هذا المقام نجدها تومئ بمعناها قبل أن تومئ بمدلولها اللغوي، و قد وقف سيد قطب على هذه اللفظة فقال: "يخيل إليك بجرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة؛ كما تلقي إليك ظل الإهمال لهذا الإصطراخ الذي لا يجد من يهتم بهاو يلبيه، و تلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون"[3]، كما توحي إليك بتماوجهم على بعض من شدة المفاجأة.

تجتمع في هذه اللفظة أصوات الصاد و الطاء و الراء و الخاء برجفاتها التي تحدثها في الجهاز الصوتي لتشارك في التعبير عن الحركة الشديدة، حركة الأجساد المتلاطمة و حركة الألسن في طلب الإغاثة، و بإيقاع كلمة يصطرخون الغليظة الصاخبة، ذات الصوت الخشن الذي يكاد يخترق صماخ الأذن؛ معضودا بإيقاع الدعاء " رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" يصور المشهد و يشعر بالجو النفسي الذي يعيشه هؤلاء.

---

[1] - سورة فاطر، الآية 36-37.
[2] - الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، مج9، ص 319.
[3] - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص 92.

ج- و يوقفنا عبد الحميد هنداوي عند مثال آخر يبين فيه شعور المتلقي أمام الألفاظ و كأنه يسمع حركاتها و احتكاكاتها و إزاحاتها، من ذلك وقفته في شان قوله تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ "[1].

يقول: في الآية "نلاحظ أن كلمة (زُحْزِحَ) في الآية الأولى تحاكي عملية الزحزحة و تصورها؛ و ذلك لان الزحزحة لا تتم دفعة واحدة، و إنما تتم على مرات متكررة و محاولات متعددة لتحريك شيء ثقيل من مكان ثابت فيه؛ و لذا فانه لا يتأتى نقله منه مرة واحدة؛ و لذا يحتال على ذلك بتحريكه شيئا فشيئا، وكذلك نجد أن فعل (زحزح) مضعف المقطع (زح) يعبر بتضعيفه و تكراره على هذا الحدث و يصوره أتم التصوير، كما أن اختيار الفعل بهذين الحرفين (الزاي والحاء) بما يشتمل عليه الأول من الجهر و الثاني من الهمس، و يوحي بصوت المزيح للشيء عند إزاحته ، و ما يخرج منه من صوت يعبر عن شدة المعاناة و جهد الدفع والتحريك؛ حيث يبدأ بما يشبه الزفرة و ينتهي إلى ما يشبه السكون و الهمود في كلمة (زح) و يؤكد كذلك أن هذين الحرفين هما كذلك الحرفان الأساسيان في الفعل (زاح)؛ الذي يدخل في الحقل الدلالي نفسه الذي نحن بصدده، و إذا كانت الزحزحة إنما تكون عبارة عن محاولة تشمل على المعاناة و الجهد الشديد من جراء إزاحة الشيء الثقيل و تحريكه؛ فمن هنا تأتي مناسبة هذه الكلمة (زحزح) للتعبير عن مدى صعوبة الأمر في الخلاص من النار"[2].

ثم يضيف أمرا آخر يرى فيه تأتي مناسبة هذه الكلمة بينها و بين الحدث من التطابق الصوتي لذلك الحدث، فيقول: "و أمر آخر أن الزحزحة إنما تكون عبارة عن تحريك يسير و نقلة دقيقة لمسافة قصيرة جدا للجسم المحرك أو المزحزح بحيث تصدق الزحزحة بحدوث أدنى مباينة للنقطة التي كان يرتكز فيها الجسم المزحزح و من هنا تأتي مناسبة هذه اللفظة من جهة أخرى، و هي أنها تعبر بهذا التشكيل الصوتي لتكرار المقطع (زح)، أن يحقق الفوز و السعادة و

[1] - سورة آل عمران، الآية 185.
[2] - عبد الحميد هنداوي،: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ص 64-65.

إنما يكون بمجرد الابتعاد لأدنى مسافة من النار، فهذا لا محالة فوز عظيم لا يكاد يقدر لمن عاين أهوان ذلك اليوم، و امن رأوا النار فظنوا أنهم مواقعوها و لم يجدوا عنها مصرفا"[1].

إن القرآن في تخيره الألفاظ يراعي الناحية التصويرية لها، فكل لفظ يستقل بجرسه الخاص المصور للمعنى فضلا عن المعاني اللغوية الموضوعة لها فـ"الجرس في ألفاظ القرآن و عباراته يشترك في تصوير المعنى و وقعه في الحس"[2].

ومن خلال هذه الوقفة مع الأمثلة السالفة تبين لنا مدى اثر اختيار الكلمة واتضحت لنا مزية اللفظة المختارة مع وجود المرادفات المشاركة لها في القصد والمعنى و الدلالة ، و تبين لنا دور الحرف كميزان فارق بين الدلالات المعجمية هذا إلى جانب خصائصها و ما لها من تأثير فعال في نفسية السامع و ما تحدثه من جمالية نتيجة إيحاءات الإيقاعية النغمية.

2 - موافقة المقاطع إيقاعيا للمعاني:

- من سورة المدثر

يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ.وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ"[3].

و سورة المدثر من السور المكية المبكرة جاءت في المرحلة الأولى من البعثة و هي تحمل في مضمونها توجيهات للرسول و أوامر تكليفية تربوية تعين الرسول على أداء دعوته و الثبوت إزاء ما يلحقه من المشركين من الأذى.

و الملحظ العام في هذه الآيات توالي الفاء و تعاقبها إضافة إلى إفادتها التعقيب في ذاتها مما أعطى إيقاع السورة من أولها سرعة

[1] - المرجع نفسه، ص:65

[2] - سيد قطب: مشاهد القيامة في القرآن،دار الشروق، دتا، ص 180.

[3] - سورة المدثر، الآيات 01-07.

أوحت بالسرعة المطلوبة و التحفيز. يقول الطاهر بن عاشور: "و المعنى يقود إلى التحفيز و الشروع في إيقاع الإنذار"[1].

التحليل المقطعي للآيات:

يا / ا -َ ُ ي/ ي –ُ / هـ–َ ل / م –ُ / د –َ ث/ ث -ِ ر/ ق –ُ م/ ف –َ / ا -َ ن/ ذ –ِ ر/ و –َ / ر-َ ب/ ب –َ / ك –َ / ف –َ / ك –َ ب/ ب –ِ ر/ و –َ / ث-ِ / يا / ب –َ / ك –َ / ف –َ / ط –َ هـ / هـ -ِ ر / و –َ ر / ر –ِ ج / ز –َ / ف – َ هـ / ج –ُ ر/ و –َ / لا / ت –َ م/ ن –ُ ن / ت –َ س/ ت – َ ك/ ث –ِ ر/ و –َ / ل –ِ / ر –َ ب/ ب –ِ / ك –َ / ف –َ ص/ ب –ِ ر/.

و قد جاء التوزيع المقطعي في الآيات مناسبا للمعنى، و معظمها مقاطع مقفلة تنتهي بالسكون الحي، و مع طول هذه السلسلة من المقاطع إلا أنها لا تحوي سوى ثلاثة مقاطع غير مقفلة متباعدة المواقع؛ مما جعلها مغمورة غير ذات اثر.

و هذه الجدية في الأمر و التأديب للرسول -صلى الله عليه و سلم- جاءت في إيقاع سريع عبرت عنه المقاطع المقفلة بتتابعها. و زاد سرعة الإيقاع توازن الجمل وتلاحقها (اسم و فعل أمر بينهما الفاء) متلاحقة متتابعة.

هذا النداء العلوي الجليل للتنبيه على الخطر و الغي الذي تكرع فيه البشرية وللتنبيه على واجب الإسراع بالإنذار من العذاب الذي هو عند الله اقرب من أن يعد له أو يعمل لإرجاءه.

[1] - الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، مج12، ص 295.

و اختار الله في هذه الآيات أن تكون الحركات موافقة و مساهمة في سرعة الإيقاع إذ الوقوف على السكون يوحي بجدية الطلب و سرعة التنفيذ المطلوبة من الرسول الكريم في قيامه بواجب الإنذار، و لذلك جاءت الأفعال بصيغة الأمر.

3- إيقاعية سورة القلم بين تكرار الحرف و القافية:

معاني السورة من خلال وقفاتها: و أوردنا هذه النقطة ليتضح جليا لنا مقدار ارتباط إيقاع السورة بما حوته من معاني، و ليتبين لنا الانسجام الرائع بين الإيقاع والمعنى في نظم القرآن الكريم.

و الناظر إلى الأسلوب الذي وردت به السورة قد يظن بادئ الأمر أنها محطات لا يجمعها أصل؛ لما يرى فيها من خطاب للرسول تارة و تهديد و قص أخرى، والحقيقة التي يجب أن ندركها هي أن القرآن مع تعدد موضوعاته في السورة الواحدة إلا أنها تخدم فكرة واحدة تدور كل الأفكار الجزئية السورة حولها، لذلك نجد هذه السورة توقفنا على محطات متعددة.

أما الوقفة الأول: فمعلوم أن الله سبحانه و تعالى لما أرسل رسوله بدينه الحق؟، لاقى من قومه ما لاقى من تعذيب و تكذيب، و لم يبلغ الحد ذلك؛ بل تعداه إلى الأذى النفسي و الجسدي، و الرسول صلى الله عليه و سلم بشر مع تأييد الله له، له أحاسيس و انفعالات تخضع لكل التغيرات التي خلقها الله من حزن و فرح و انكسار و استبشار و غيرها.

و كان من أمر قريش و على رأسهم زعمائهم – بعد أن أمر الرسول بإعلان دعوته و الجهر بها – أن حاولوا صد الناس عنه، فوصفوا ما جاء به بالشعر تارة والسجع المشابه لسجع الكهان تارة أخرى، و مع ذلك لم يستقم لهم الأمر، فطفقوا أخرى يرمونه بالسحر، غير أن تلك

الإلصاقات كلها لم تكن مؤسسة؛ لأن القرآن كان فوق ما قالوا و ما يقولون.

و لما علموا أن لا مطعن لهم في القرآن بعد أن أيقنوا سمو مصدره و علو مرتبته، اتجهوا إلى شخص رسول الله كي يحبطوه عن أداء الرسالة و تبليغ الأمانة، فقالوا "بعد أن قال لهم و قالوا له و تحدث عنهم و تحدثوا عنه و اصطدم بهم و اصطدموا به "[1]: أنه مجنون تصيبه صرعات الجن فيقول الكلام الذي تسمع قريش، و كان يقلقها لأنه الحق، قالوا مجنون و هو الذي عرف بينهم طيلة حياته بالصادق الأمين، ما جربوا عليه يوما سوءا و ما جربوا عليه بلادة عقل؛ بل كان أعقلهم، و لا أدل على ذلك من سيره في تجارة خديجة و الربح الوفير الذي جلبه لها و فصله بين القبائل في وضع الحجر الأسود يوم اختلفوا.

و القرآن الكريم يسجل هذه الاتهامات إلى جانب اتهامات أخرى ليؤكد تلك المجابهة و الشدة التي بلغها الصراع من جانب الكفار يقول الله تعالى: "وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ "[2]، و يقول: "قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ "[3]، "وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ "[4]، "فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ "[5]، "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ "[6]، "فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ "[7]، و هذه الآيات تؤكد أن التهمة والقذف بالجنون هي سنة المكذبين من قبل.

و قد كان الرسول حز في نفس الأمر ، فجاءه الوحي من ربه يسليه؛" و هو إيناس كذلك و تسرية و تعويض فائض غامر عن كل حرمان و عن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون"[8]، لان المكانة الحقيقية هي التي عند الخالق لا المخلوقين، و يؤكد الله ذلك

---

[1] - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص 263.
[2] - سورة الحجر، الآية 06.
[3] - سورة الشعراء، الآية 27.
[4] - سورة الصافات، الآية 36.
[5] - سورة الذاريات، الآية 39.
[6] - سورة الذاريات، الآية 52.
[7] - سورة الطور، الآية 29.
[8] - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج06، ص 3655.

بالقسم الذي افتتحت به السورة، و القسم من الله لأهمية المقسم به و المقسم عليه. فلا جنون بالرسول بل تكريم على حمل الرسالة التي أبت السموات و الأرض حملها، بالأجر غير الممنون، أجر بلا مقدار محدد، مطلق فوق ما يتصور، و كأن الله في الآيات يقول لنبيه: إنك يا محمد لتحتمل هذه التهم وتحتمل و تصبر و تقاسي و تجابه و تؤذى و تنالك الشرور و تسلقك الألسنة، إنك مأجور و أي اجر لك انه اجر دائم خالد لا ينقطع و لا ينصرم و لا يكون فيه من، "وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ "[1].

و فوق المن و التنزيه الذي حبى الله به نبيه، أعطاه التزكية و الرفعة في الخلق بين أولئك الذين يدعون جنونه فكانت له شهادة من الله ومصدقة من السماء و وثيقة ممن خلق الوثائق، لا يضر ما قيل قبلها و لا ما يقال بعدها، فهي شهادة بالبراءة من كل خلق ذميم، و هي شحذ لهمة الرسول و رفع لهمه؛ للمضي في تبليغ الدعوة غير عابئ بما يصيبه بعدها.

و المشهد باستهلاله الغريب البارع و نظم ألفاظه الفائق و عباراته القصيرة المتدفقة معان و بما حواه من أفكار، يصور الحنو من الله على شخص الرسول و ما أعظمه من حنو يعبر بصدق عن تسلية الله لنبيه عليه الصلاة و السلام.

أما الوقفة الثانية في هذه السورة فتصور لنا واحد من أولئك الذين يروجون لهذه التهم و الإلصاقات بالرسول، بل و لعله مُصدرها، يجابهه الله تعالى بالصفات الذميمة التي فيه: حلاف، مهين، هماز، مشاء بنميم، مناع للخير، معتد، أثيم، عتل و زنيم، و يصور القرآن في هذه العبارات القصيرة حتى لا يبقى للسامع مجالا لصفات قبيحة أخرى به فهو يكتفي بهذه الصفات عن كل ما عداها و لعل هذا من الله لإخراس الصوت الذي كان يلحق الأذى بالرسول صلى الله عليه و سلم و يحط من نفسيته فآن للرسول أن يسفهه تسفيها لا إلصاق فيه و لا ادعاء إنما حق من عند الحق.

[1] - سورة القلم الآية 03.

و الذي تصوره الآيات هو الوليد ابن المغيرة كان معروفا بين قومه بكثرة حلفه في الحق و الباطل و من كان هذا شانه عرفت مكانته المنحطة بين قومه حتى لأنه يحتاج للحلف كي يصدق و يؤخذ كلامه مأخذ الجد و فعله هذا يجلب له المهانة والاحتقار، فكان بذلك مهينا، هماز يعيب الناس و ينسى عيوبه، يلوي لسانه عن الحق، بل و يمشي بين الناس بالنميمة ينقل أخبار قوم إلى قوم للإفساد و إيقاع الفتنة بينهم، و على ما أتاه الله من مال و خير و نعم كثيرة، فهو مناع للخير، بخيل بالمال حتى على أهله، جاف في معاملاته، يظلم و يعتدي على غيره، يفجر في الخصومة، وهذه الصفات كلها آثام تضاف إلى الآثام التي بينه و بين خالقه،، تنمو و تتكاثر حتى تجعله أثيم كثير الآثام، و بعد ذلك كله يفحمه القرآن بالصفة التي توجب منه السكوت، و تضعه في مقامه الحقيقي و المناسب، و تبرر كل ما تقدم من صفات، إذ انه زنيم ابن زنا؛ لا يعرف له أصل.

و لا بد لكل فعل من عاقبة و مآل لذلك جاءت الوقفة الثالثة فيها تطمين للرسول أن كل ما يفعل من تكذيب و إعراض و عدم الإيمان و إنكار إنما يجنون ثمراتها بعد أن ينكشف لهم الحق، فلا ضير إذن ما دامت لا تنقص من الأجر المعد شيئا، و هذه الفكرة لخصها القرآن بقوله"إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ "[1]؛ لخصتها قصة أصحاب الجنة؛ فحين باينوا الحق و ركنوا إلى الضلال ظنوا أنهم على شيء، فقرروا مخالفة سنة أبيهم في عطاءه للفقراء بعد موته، و في سكون و بعد ركون يعدون الخطة و يظنون أنهم على حرد قادرين " وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ "[2] و ينطلقون في تنفيذ خطتهم غير أن الله المطلع على كل شيء قد تولاها أثناء نومهم " فأصبحت كالصريم"[3] فما كان منهم بعد رؤيتها إلا العودة و الإنابة.

و يسلي الله تعالى رسوله بقصة سيدنا يونس لتحدث له منها العبرة و الاتعاظ.

نظم سورة القلم و إيقاعها:

[1] - سورة القلم، الآية 17.
[2] - سورة الأنفال، الآية 30.
[3] - سورة القلم، الآية 20.

درج شعراء العرب في الجاهلية على البدء ببكاء أطلالهم لاستثارة عواطفهم وعواطف السامعين لما علموا ما لذلك من أثر في تذوق النص و اسر السامع و درج خطبائهم على استعمال حروف النداء للفت كل مستمع و أن الأمر موجه إليه وكان هذا هو الشأن الغالب في شعرهم و نثرهم غير أن القرآن بأسلوبه المباين لكل أسلوب درجوا عليه خرج عن ذلك الإطار في إفتتاح سوره فهو لم يعتمد أسلوباً واحداً يطبع به مطالع سوره فكان غير أسلوبهم من أول نزوله فكانت البداية بفعل أمر " اقرأ باسم ربك الذي خلق"[1] و منها تراه حينا يبدأ بحرف نداء أو فعل أمر أو بقسم أو بثناء أو بأحرف مقطعة و هي أكثر ما راعى انتباه العرب إذاك فلم يكن للعرب سابق عهد بهذا النوع من المطالع.

و لعلم أهل الصنعة منهم مبلغ بيان القرآن و منتهى بلاغته، تواصوا بعدم السماع إليه، غير أن القرآن باستهوائه الصوتي أرغمهم بمثل هذه المطالع إلى إصاخة السمع، بل و التأثر به رغم كل عناد و إنكار.

و سورة القلم واحدة من تلك السور التي لم يختلف في مكيتها، إذ يشي أسلوبها و فكرتها و إيقاعها بمكيتها فقصر فواصلها و تقريرها أمر العقيدة و مواساة الرسول صلى الله عليه و سلم لا يمكن تفسيره إلا بنزولها في العهد المكي للدعوة، و إن إختلفت الرؤى حول وقت نزولها أبعد سورة العلق " إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ " أم نزلت بعد ذلك، و المتفحص لفكرة السورة و ما فيها من مجابهة المشركين لدعوة محمد صلى الله عليه و سلم و اصطدامهم معها؛ ما يدل على تراخي نزولها، و أنها نزلت بعد الأمر بالجهر بالدعوة.

و سورة القلم في إطارها العام جاءت تسلية للرسول و تسرية عليه، و هي واحدة من أهداف القرآن المكي الذي يخاطب الرسول الكريم و العصبة المؤمنة معه، إن بالتسلية و التسرية، أو بالتوبيخ و العتاب، بأسلوب فيه من الحنو و العطف بألفاظ سلسة و عبارات رخية الإيقاع، إذ جاءت كثير من السور على شاكلة السورة في الموضوع منها الأعلى، الضحى، عبس، النجم، طه،

[1] - سورة العلق، الآية 01.

و الإيقاع القرآني من أسراره أنه يتنوع ولا يتخذ طابعا واحداً، فإلى جانب الفاصلة التي يغلب عليها حرف النون في السورة مأزوراً بحرف الميم؛ نجد التكرار الداخلي للحرفين ذاتهما في الآيات، و الإحصاء الآتي يبين هذا التكرار عبر كامل متن السورة:

الحرف المكرر	الألفاظ المشكلة من الحرف المكرر
حرف النون	ن، يسطرون، أنت، بنعمة مجنون، إن، لأجراً، ممنون، إنك، خلقٍ، يبصرون، المفتون، إن، بمن، عن، بالمهتدين، المكذبين، تدهن، يدهنون، مهين، نميم، مناعٍ زنيم، أن، كان، مالٍ، بنين، ءاياتنا، الأولين، سنسمه، إنا، بلوناهم، بلونا، الجنة، ليصرمنها، مصبحين، يستثنون، نائمون، فتنادوا، مصبحين، إن، صارمين، فانطلقوا، يتخافتون، أن، يدخلنها، مسكين، حردٍ، فادرين، إنا، ضالون، نحن، محرومون، تسبحون، سبحان، ربنا، إنا، كنا، ظالمين، يتلاومون، ياويلنا، إنا، كنا، طاغين، ربنا، أن، يبدلنا، منها، إنا، ربنا، راغبون، كانوا، يعلمون، إن، للمتقين، عند، جنات، النعيم، أفنجعل، المسلمين، المجرمين، تحكمون، كتاب، تدرسون، إن، تخيرون، أيمان، علينا، بالغة، إن، تحكمون، إن، كانوا، صادقين، عن،ساق، يدعون، يستطيعون، خاشعة، يدعون، سالمون، فذرني، من، سنستدرجهم، من، يعلمون، إن، متين، أجراً، من، مثقلون، عندهم، يكتبون، تكن، نادى، أن، من،لنبذ، من، الصالحين، إن، الذين، ليزلقونك،يقولون، إنه، لمجنون، للعالمين.

الحرف المكرر	الألفاظ المشكلة من الحرف المكرر
حرف الميم	القلم، ما، ما، بنعمة، بمجنون، ممنون، عظيم، بأييكم، المفتون، اعلم، بمن، اعلم، بالمهتدين، المكذبين، حلاف مهين، هماز، مشاء، بنميم، مناع، معتد، أثيم، عتلٍ بعد، زنيم، مال، سنسمه، الخرطوم، كما، ليصرمنها، مصبحين، طائف من، هم، نائمون، كالصريم، مصبحين، حرثكم، كنتم، صارمين، هم، اليوم، عليكم، مسكين، فلما، محرومون، أوسطهم، الم، لكم، ظالمين، بعضهم، يتلاومون، خيرا منها، يعلمون، للمتقين، ربهم، النعيم، المسلمين، المجرمين، ما، لكم،تحكمون، أم، لكم، أيمان، يوم، القيامة، لما، تحكمون، سلهم، أيهم، زعيم، أم، لهم، بشركائهم، يوم، أبصارهم، ترهقهم، هم، سالمون، من، سنستدرجهم، من، يعلمون، أملي، لهم، متين، أم، تسئلهم، فهم، من، مغرم، مثقلون، أم، عندهم، فهم، لحكم، مكظوم، نعمة، من، مذموم، من، بأبصارهم، لما، سمعوا،لمجنون، ما، للعالمين.

و الملحوظ على حرفي النون و الميم أنهما من الحروف المشكلة للكلمة التي رمى بها المشركون رسول الله صلى الله عليه و سلم " مجنون"، و منها جاءت التسلية للرسول. و هذا إعجاز قرآني ينضاف إليه كون النون من الأحرف التي قصدها العرب عند إرادتهم التطريب؛ إذ كانوا يلحقون أواخر الكلمات الواو و النون لحصول الطرب، و لا يخفى ما في ذلك من الأنس الأريحية.

أما عن الإيقاع السياقي العام للسورة فتشارك فيه صور السورة و أبنيتها و جرس الكلمات و الحروف و المدود و الفواصل و الجمل و اختيرت "نغمة النون" لتكون العنوان العريض لهذا الإيقاع و لوقعها الجميل المؤثر و قوته في تحريك النفس واستثارة العواطف و المشاعر.

فساهم حرف النون في جعل الإيقاع موافقا لمقصد السورة و الهدف الذي جاءت لأجله و هو تسلية الرسول و التسرية عنه و نلحظ ذلك من خلال تكرارها في ثنايا الجمل و الآيات من بدءا السورة إلى مختتمها؛كما هو واضح في الجدول الإحصائي، يعضدها في ذلك حرف الميم الذي لا يبتعد عنها في خصائصه الصوتية. أما الصور التي حوتها السورة فنغمة الحرف فيها بادية بوضوح مع كل مشاهد قصصها، يبدأ الحديث عن الوليد بن المغيرة " حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم" و في قصة أصحاب الجنة " إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ اقسما ليصرمنها مصبحين و لا يستثنون" و في قصة يونس " لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء و هو مذموم".و القصة على ما لها من صرف للذهن عن الحال التي هو فيها اختار الله لها أن تكون من تلك الأحرف الرنانة المطربة ليتحقق الغرض من الجانبين.

فجاءت "ن" في مطلع السورة مع ذلك المد و بتلك اللذاذة لحرف النون تترجم تلك الدفقة الشعورية الممتلئة عطفا و حنانا التي خص الله بها نبيه من خلال التوجيه المباشر للخطاب، و النسبة إلى ذاته العلية، و نفي الجنون عنه صلى الله عليه و سلم، و النعم التي أفضاها عليه من خلق عظيم و اجر غير ممنون و نعمة الرسالة التي شرفه الله بتبليغها، و جاءت بعدها تترجم الطغيان في وصف من يصدق فيه حقا انه سيئ الخلق، و تجيء بعدها لتعبر عن الحرمان حرمان أصحاب الجنة للفقراء و حرمانهم أنفسهم من بركة الله، و تختتم السورة كما ابتدأت بمشهد أسدلته على قصة ذا النون لينتفي الجنون عن الرسول الكريم.

كما ساهم تكرار بعض الكتل الحرفية في إيقاع النص نحو: مجنون- ممنون، تبصر- يبصرون، تدهن- يدهنون، طاف- طائف، بلوناهم- بلونا، تسبحون- سبحان... و اشتركت إلى جانب هذا كله الصيغ

الصرفية في إظهار حرف النون و الميم إظهارا يؤكد نغمها في النص، نلمس ذلك في الأفعال: حلاف، هماز، مشاء، مناع. على وزن "فعـَّال"، و الفعلين: ليصرمنها و يدخلنها على وزن "يفعلنَّ"، و هذه الصيغ تمثل دورها في تكرار القالب الصوتي المحدث للإيقاع.

أما الفواصل التي انتهت بها آيات السورة فقد جاءت على الشكل التالي: ون=26، ين=17، وم=03، يم= 07. و هاته الفواصل تنتهي بمدود إضافة إلى المدود المبثوثة داخل النص النابعة من التقاء الحروف،و علاقة هذه المدود بإيقاع النص و معانيه فمن جهة التطريب أولا و ثانيا من جهة الانسجام مع صور النص في امتدادها الزمني.

و لأن العلاقة لا تدرك إلا بذائقة فنية لا يمكن البرهنة عليها، يرشدنا بكري شيخ أمين إلى حيلة لإدراك العلاقة فيقول: " إقرأ: "يسطرون" و مد الراء بالضم مقدار ست حركات... ثم إقرأ: "ما أنت" و مد الميم بالفتح بمقدار ست أو أربع حركات و ائت إلى الهمزة في "أنت".
و هكذا افعل في المدود الأخرى، و أعط كلا منها ما يستحقه من الصوت المقرر في علم " الفونيتيك" أو "الصوتيات" أو ما يسميه المسلمون بـ"التجويد".
و الآن أربط بين إطالة الصوت بالمد و معنى "يسطرون".
و اربط بين المد الطويل و "ما أنت"و "مشاء" و بين المعنى.
و هكذا افعل في كل كلمة مددتها.
أفلا تلاحظ الصوت قد إنسجم مع الصورة"[1].

لقد تجلى حرف النون في سورة القلم فاكسبها طابعا إيقاعيا جلَّى بدوره القدرة المعجزة في استعمال الأساليب اللغوية في صناعة الإيقاعية القرآنية.

كما تترصع السورة بجملة من الأساليب البلاغية الأخرى نجملها فيما يلي:

[1] - بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص 272.

- الجناس الناقص: في قوله تعالى: "مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ و إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ"، بين مجنون و ممنون.
- الاستعارة: في الآية "وَدُّوا لَو تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ" و المداهنة التلطف والمداراة تشبيها لها بالدهن السائل في ليونته.
- المبالغة في وصف الوليد بن المغيرة: حلاف، هماز، مشاء، مناع.
- التشبيه المقلوب: في قوله تعالى: "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ"، جعل المشبه به مشبها و المشبه مشبها به، و فيه من التسلية للرسول ما فه.
- جناس الاشتقاق: بين طاف و طائف.
- الكناية عن الهول و الشدة بكشف الساق: " يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ...".
- التقريع و التوبيخ: في الآية " مَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ".
- التهديد و الوعيد: في قوله تعالى " ذَرْنِي و مَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ".

و كلها أساليب بديعية تسهم في إعطاء النص جمالية إيقاعية، فضلا عن التلوين والتنوع في الإيقاعات.

خاتمة البحث:

إن أي محاولة في البحث مهما دقت و ارتفعت تبقى في معزل عن إدراك أجمل وأبدع الأساليب التعبيرية التي اعتمدها القرآن، و أن أي باحث حينما يقارب النصّ القرآني يدرك حقيقة الإعجاز الذي خص به القرآن، خصوصا عندما يوفق قاربه بعد البحث على شاطئ التقييم و التقويم فلا يجد في شباكه شيئا يذكر، إلا ما علق في ذهنه من تلك الوقفات و الإحساسات التي ما وسعتها أقلامه و لا حوتها أوراقه.

و نعتقد تمام الاعتقاد أن أي دراسة للنص القرآني من جانبه الإيقاعي لا تعدو كونها نفحات يحكمها الرصيد المعرفي و الرابط العاطفي للباحث مع القرآن، لأن موضوع الأدب موضوع ذوقي تكاد تنعدم فيه الموضوعية إلا في مواطن يمكن عدها، كما هو الحال في الظواهر البلاغية العامة كالتشبيه و الاستعارة و الكناية و غيرها.

و على ما اعترى البحث من قصور فإني خرجت منه بملاحظات و استنتاجات تتعلق ببناء القرآن الإيقاعي يمكن إجمالها في الآتي:

- إن الظاهرة القرآنية ظاهرة مركبة تستعصي على التأويلات و التعليلات الأحادية الجانب، مما يتطلب اللجوء إلى نظرة شاملة تستحضر كل العوامل الفاعلة في اتساق الخطاب القرآني وانسجامه، لأنه يشكل منظومة متكاملة، إذ تتماسك الكلمات و الآيات والسور القرآنية فيه بروابط لغوية، وموضوعية، ودلالية.

- إنني حين نمعنت القرآن وجدته لمسات سريعة و ظلال محكمة و ألفاظ لها جرس و صوت و صور، و لهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن معجزة بيانية و أدبية لم يعرف لها التاريخ حذوا على كثافة الإنتاجات الأدبية.

- إعجاز القرآن ليس فقط في معانيه، و إنما فوق ذلك هو معجز بتأثيره النفسي الناتج عن الإيقاع المستحكم فيه، و هو النوع من الإعجاز الذي عد أهم الأنواع، و لهذه الخاصية يستعصي القرآن عن الترجمة لأنها تفقده أهم مكون بنائي له.

- مـن خـلال تتبعنـا لتعامـل العلمـاء مـع أصـوات اللغـة العربيـة و تقسيمهم لها وعنايتهم الفائقة بها، إضافة إلى ما أثبتته الدراسات الحديثة من أن كل حرف يتطلب طاقة للنطق به و أن تلك الطاقة لها أثر في النفس حين تبذل؛ أدركنا سر حرص القرآن على تلاؤم الحروف و اختيارها في أماكنها لأداء المعاني المنوطة بها، فيفرض الانسجام الصوتي تحقيق توازنات صوتية في مواقف تعبيرية معينة، مع تحقيق مبدأ اقتصاد المجهود ، والتأثير في المتلقي ببراعة وروعة الجرس الموسيقي.

- يقوم الإيقاع القرآني على الاتساق، المتمثل في الربط بين مكونات النص، وهذا ما جعل الوشيجة الرابطة بين أسلوب النص و تراكيبه و معانيه وثيقة الصلة، ولهذا الاتساق كان الإيقاع القرآني منسجما تماما مع المعاني تطلبه و يطلبها.

- أن المنظومة الإيقاعية في القرآن قد استخدمت بطريقة محكمة، تؤلف بين الغرض الديني و الغرض الفني النظمي، فكان هذا الأخير وسيلة فعالة لمخاطبة حاسة الوجدان الدينية بلسان الجمال الفني.

- الفاصلة القرآنية لوحدها تقوم إعجازا شاهدا على أن القرآن كلام الله فهي بجميع ضروبها و بمختلف تشكلاتها الإيقاعية خاصية ميزت القرآن الكريم و أخرجت خطابه عن مألوف العرب.

و أخيرا؛ لما شاء الله أن يظل قرآنه آية شاهدة عليه على امتداد العصور و أن يظل معجزة خالدة؛ فإن أي محاولة لخرق أسوار هذا الإعجاز من أي جهاتها لا تزيد الطامح إلى ذلك إلا تعظيما لقدر الله، و معرفة بقدرة.

و لئن قدر الله لنا إتمام هذا البحث؛ فما تلك إلا نافذة تكرم بها علينا لمزيد البحث و الغوص في أسرار الكتاب المبين في لاحق حياتنا الدراسية، و لإن البحث العلمي كان و لا يزال عسير المدخل طويل المسافة بعيد الغاية خصوصا مع القرآن الكريم عديم النهاية فإنا نرجوا التماس العذر و الدعاء و التوفيق.

فهـــرس الآيـــات

رقم الآية		الصفحة
	ـــــــ سورة الفاتحة ـــــــ	
01	" الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"	107
02 - 03	رَّحْمنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ "	107
	ـــــــ سورة البقرة ـــــــ	
109	حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم"	88
137	« فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »	68
200	اقْضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ"	65
235	عْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ"	65
	ـــــــ سورة آل عمران ـــــــ	
43	مُ"اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ "	27
92	لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا..."	89
185	"كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ "	145
	ـــــــ سورة الأنعام ـــــــ	
38	ـا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ"	23
151	يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ"	87
	ـــــــ سورة الأعراف ـــــــ	
143	مَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ"	65
183	وَأُمْلِي لَهُنَّ كَيْدِي مَتِينٌ "	88
	ـــــــ سورة الأنفال ـــــــ	
02	" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ و إِذَا عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً و عَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُون"	51
30	يَمْكُرُونَ و يَمْكُرُ اللهُ"	152
31	نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَلِين"	121
	ـــــــ سورة التوبة ـــــــ	
14	"وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ "	88
45	هُمْ" فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ "	88

82	لْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا"	97

سورة يونس

01	كَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ "	88
15	" و إذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات قال الذين لا يرجون ءَنَا ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْه"	52
27	مَّا أغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا"	87
38	فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِه"	07
58	د:"جَاءَكُم مَّوعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ و هُدىً وَرَحمْ ةً لِلْمُؤمِنِين"	02

سورة هود

13	"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مُفْتَرَيَاتٍ و مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين"	07
37	وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..."	89

سورة يوسف

19	قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ "	88

سورة الرعد

09	الِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ "	112
28	" الذِينَ ءَامَنُوا و تَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله الاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب"	51

سورة إبراهيم

31	لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ "	110
37	" بِوَادٍ غَيْرِ ذِيزَرْعٍ"	90

سورة الحجر

06	لُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ "	150

سورة الكهف

29	وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء"	87
29	لَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ "	65
31	فَمَن شَاءَفَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ "	86
60	" وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَمْضِيَ حُقُبًا"	87

سورة مريم

26	" فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا "	27

سورة طه

34	وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً"	65

43-42	" اذهَبْ أنتَ وَأخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذهَبَا ى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"	26
55	ْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ "	86
67	ْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى "	111
69	"فألقي السَّحرَةُ سُجداً قَالُوَاآمَنَّابِرَبِّ هَارُونَ ومُوسى"	138
70	رَبِّ هَارُونَ و مُوسَى"	111
117	"يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى"	110
	سورة الأنبياء	
37	"الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ "	90
	سورة الحج	
01	" يَا أَيُّهَا النَاسُ اتَقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ "	84
	سورة المؤمنون	
36	ْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ "	90
	سورة النور	
39	"كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمْآنُ مَاءً حَتَى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا"	126
55	« وَعَدَ اللهُ الَذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ »	68
	سورة الفرقان	
74	ِاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا "	110
	سورة الشعراء	
63	نَّ كُلٌّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ "	65
45	" فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ"	139
27	إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ "	150
95-91	بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ "	143
	سورة القصص	
81	" فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ "	27
76	قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى..."	89
34	"هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي..."	140

سورة الروم

30 فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا" 08

سورة الأحزاب

67 "وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَـا" 88

سورة فاطر

37-36 : "وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا 144
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ
يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ
النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ"

سورة الصافات

36 يَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ " 150
118 "وَآتَيْنَاهُمَـا الكِتَـابَ المُسْـتَبِينَ . وَهَـدَيْنَاهُمَا الصِّـرَاطَ 92
المُسْتَقِيمَ "

سورة ص

05 "إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ " 110
52 لَدَيْهِمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ " 87

سورة الزمر

23 " اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ 50
مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ
اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "
29 ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ..." 133
45 " و إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ 52
بِالآخِرَةِ"

سورة غافر

32 قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ " 112

سورة فصلت

32 يَا قَوْمِ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَنَاد" 112

سورة الشورى

20 مَن" يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ و مَنْ 101
يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا"

سورة الأحقاف

25 أَطْبَحُوا لاَيُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ " 87

سورة الفتح

01	صُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا "	87

سورة ق

40	وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ "	89

سورة الذاريات

04-01	وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا"	101
39	فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ"	150
52	كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ"	150

سورة الطور

29	فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ"	150
49	وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ "	89-65

سورة النجم

20-19	أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ "	112
22	تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ "	112-110
25	لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ "	111
44-43	أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا"	96

سورة القمر

14-11	"فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ "	67
16	فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ "	112
20	كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ "	110
36	وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ "	67
41	وَجَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ "	111
54	إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ "	110

سورة الجمعة

11	وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا"	65

سورة الطلاق

2-1	"وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا.وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ "	88

سورة القلم

03	" مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ	159-151

مَمْنُون"

17	بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّة"	152
20	فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم"	153
35	جْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِين"	159
37-36	مْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُم كِتَابٌ فِيه تَدْرُسُون"	159
42	ـْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ"	159

سورة الحاقة

07	أَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ "	110
42-41	ـَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ وَ..لاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ"	113

سورة المعارج

15	كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى "	110

سورة نوح

22	ـَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا "	111

سورة الجن

01	سْتَمِعْنَا قُرْءاناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَنَّا بِهِ"	48

سورة المزمل

04	ـِ"رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا"	53

سورة المدثر

07-01	"يَاأَيُّها المُدَثِّر قُمْ فَأَنْذِرْ وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَ فَاهْجُرْ وَ لاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِر"	147
42	مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ"	65

سورة الإنسان

26	نَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً"	65

سورة النازعات

05...01	"وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا . وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا . "	115
14...06	" يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ . يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ . أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ "	115
26...15	" هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى . فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى "	116

33…27	"أأنتُمْ أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّمَاء بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ."	116
41…34	" فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى . يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى . فَأَمَّا مَن طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى "	116
46…42	" يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا . "	117

سورة المطففين

09-07	" كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّين وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّين كِتَابٌ مَرْقُوم"	99
20-18	" كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُوم"	99
30	إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ يَضْحَكُونَ "	65

سورة الإنشقاق

06	يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ"	

سورة الأعلى

03-02	"الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى"	96

سورة الفجر

04	وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ "	112
20-19	وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمَّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا "	94

سورة الشمس

01 07…	"وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا "	95

سورة الليل

02-01	وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى"	96
10-05	" فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى"	98

سورة الضحى

03	ا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى "	111
08-07	َجَدَكَ ضَالاً فَهَوَى َجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى"	96
10-09	فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ أَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ"	96

سورة التين

02	وَطُورِ سِينِينَ "	112

سورة العلق

01	قْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقْ"	153-30

سورة الزلزلة

2-1	" زَلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا "	87

سورة القارعة

06	فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ "	110

سورة العاديات

05-04	فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا "	94

سورة الهمزة

04	لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ "	110

سورة الماعون

02-01	رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَا"لِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ "	90

سورة الإخلاص

04	لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ "	111

قائمة المصادر و المراجع:

* **القرآن الكريم.**
* **إبراهيم، عبد الجواد**: موسيقى اللغة، دار الآفاق العربية، القاهرة، دط، 1423هـ/2003م.
* **ابن الأثير، ضياء الدين**: المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تحقيق: د. احمد الحوفي و د. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر،ط1، 1379هـ /1959م.
* **ابن الجزري**، أبو الخير محمد ابن محمد الدمشقي: النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1998م.
* **ابن جني، أبو الفتح عثمان**: الخصائص، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان،ط2، 1424هـ/2002م.
* **ابن جني، أبو الفتح عثمان**: سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م.
* **ابن عاشور، محمد الطاهر**: التحرير و التنوير، دار سحنون للنشر و التوزيع، تونس، 1997م.
* **ابن القيم**: الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، مكتبة الهلال، دتا.
* **ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم**: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م.
* **ابن هشام**، السيرة النبوية، ج1، تحقيق: محمد علي القطب و محمد الدالي بلطة، المكتبة العصرية، بيروت، 1415هـ/1994م.
* **أبو زيد، احمد**: التناسب البياني في القرآن (دراسة في النظم المعنوي و الصوتي)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء- المغرب، 1992م.
* **أبو زيد، نصر حامد:** مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي،ط6.
* **إخوان الصفاء**: رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء، دار بيروت، لبنان، دط، 1376هـ/1957م.
* **إسماعيل، عز الدين**: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 1412هـ/1992م.
* **الألوسي، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود**: روح المعاني، تحقيق: د. السيد محمد السيد و سيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، 1426هـ/2005م.

* **أنيس، إبراهيم**: موسيقى الشعر، دار القلم، بيروت- لبنان، ط4، 1972م.
* **الباقلاني، أبو بكر**: إعجاز القرآن، تحقيق: أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر، دط، 1994م.
* **بركة، بسام:** علم الأصوات العام-أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، لبنان، دط، دتا.
* **بغدادي، بلقاسم**: المعجزة القرآنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1992م.
* **بكري، شيخ أمين**: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، ط4، 1980م.
* **بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن:** الإعجاز البياني للقرآن و مسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط3، دتا.
* **بن نبي، مالك**: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، 1402هـ/1981م.
* **بوداود، حليمة مدرس**: معجزة الحروف. دار الغرب. دط. دتا.
* **البوطي، محمد سعيد رمضان**: من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، دط، 1416هـ/1996م.
* **بوملحم، علي:** في الأسلوب الأدبي،دار و مكتبة الهلال،بيروت، دط، دتا.
* **بويو، جان ماري:** مسائل فلسفة الفن المعاصر، ترجمة: د. سامي الدروبي، دار اليقظة العربية –بيروت، ط2، 1965م.
* **التونجي، محمد و الابر، راجي**: المعجم المفصل في علوم اللغة- الألسنيات، مراجعة: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م.
* **الجاحظ، أبو عثمان:** البيان و التبيين، تحقيق: حسن السندوبي، دار المعارف، تونس، 1990م.
* **الجرجاني، عبد القاهر**: دلائل الإعجاز، شرح و تعليق: د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي،ط1، 1425هـ/2005م.
* **الجرجاني، علي بن محمد الشريف:** كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1985م.
* **الجندي، أنور:** الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، 1402هـ/0982م.

* **الجويني، مصطفى الصاوي**: جماليات المضمون و الشكل في الإعجاز القرآني، منشأة المعارف، الإسكندرية،د.تا.
* **الجيوسي، عبد الله محمد**: التعبير القرآني و الدلالة النفسية، دار الغوثاني للدراسات القرآنية،سوريا،ط2، 1427هـ/2007م.
* **حرير، محمد:** جمالية التلقي في القرآن من خلال بحوث الإعجاز، بحث دكتوراه، اشراف: د. حبيب مونسي، جامعة الجيلالي اليابس/ سيدي بلعباس، 2006/2005م.
* **حسان، تمام**: البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية و أسلوبية للنص القرآني)، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط1، 1413هـ/1993م.
* **حساني، احمد:** مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1994م.
* **حمدان، ابتسام احمد**: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، دار القلم العربي، سوريا،ط1، 1418هـ/1997م.
* **حمدي، محمد بركات**: سر العربية و بيانها، دار البشير، ط1، 1408هـ/1988م.
* **الخالدي، عبد الفتاح**: في ظلال القرآن في الميزان،دار الشهاب، باتنة، ط1، 1406هـ-1986م.
* **الخالدي، عبد الفتاح**: المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار الشهاب، باتنة، 1988م.
* **الخالدي، عبد الفتاح**: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الشهاب، الحزائر، 1988م.
* **الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد**: بيان إعجاز القرآن. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976م و ط2 ،1387هـ/1968م.
* **الخطيب، عبد الكريم**: إعجاز القرآن-في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية و معاييرها، دار المعرفة، لبنان، ط2، 1975م.
* **الدبل، محمد بن سعد:** الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مكتبة العبيكان، ط2، 1998م.
* **دراز، عبد الله**: النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط4، 1397هـ/1977م.
* **الرازي، فخر الدين**: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط1، 1985م.
* **الراغب، عبد السلام احمد**: الدراسة الأدبية (النظرية و التطبيق)، دار القلم العربي-دار الرفاعي، حلب-سورية، ط1، 1425هـ/2005م.

* **الرافعي، مصطفى صادق**: إعجاز القران و البلاغة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت. دط. 1426هـ/2005م.
* **الرماني، أبو الحسن علي بن** عيسى: النكت في إعجاز القرآن. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط03، 1976م. و ط2، 1387هـ/1968م.
* **رمضان، محي الدين**: وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن، دار الفرقان، ط1، 1402هـ/1982م.
* **زرزور، عدنان:** علوم القرآن و إعجازه، و تاريخ توثيقه، ، دار الأعلام، الأردن،ط1، 1426هـ/2005م.
* **الزرقاني، محمد عبد العظيم**: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، لبنان،ط1، 1424هـ/2003م.
* **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله**: البرهان في علوم القرآن، ج1 ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.
* **زكي، مبارك**: النثر الفني في القرن الرابع، دار الكتاب العربي.
* **الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر**: أساس البلاغة، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 1996م.
* **الزوبعي طالب محمد** و حلاوي، نصار: البيان و البديع، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1996م.
* **الزوزني**: شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف،بيروت، 1414هـ/1994م.
*
* **السلامي، عمر**: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، دط، 1980م.
* **السيوطي، أبو الفضل جلال الدين:** الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، لبنان، 1983م.
* **السيوطي: أبو الفضل جلال الدين**: المزهر في علوم اللغة و أنواعها، شرح و تعليق: محمد جاد المولى بك و آخرون، المكتبة العصرية، لبنان، 1408هـ/1987م.
* **الشعراوي، متولي:** المختار في تفسير القرآن، ج1، دار الشهاب، باتنة.

* **شلبي، رءوف**: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي(مناهجها و غاياتها)، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1394هـ/1874م.
* **شيخون، محمود السيد**: الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1389هـ/1978م.
* **الصالح، صبحي**: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط13.
* **الصغير، محمد حسين على**: الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1420هـ/2000م.
* **عبد التواب، صلاح الدين**: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، دار نوبار، القاهرة، ط1، 1995م.
* **عبد القادر، عبد الجليل**: الأصوات اللغوية، دار صفاء، الأردن، دط، 1998م.
* **عتر، نور الدين**: القرآن الكريم و الدراسات الأدبية، منشورات دمشق، ط9، 2004م.
* **عتيق، عبد العزيز**: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1972م.
* **عجلان ،عباس بيومي**: الأداء الفني للنص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.
* **عميش، العربي:** خصائص الإيقاع الشعري،دار الأديب للنشر و التوزيع، الجزائر، 2005م.
* **عرجون، محمد الصادق**: القرآن العظيم-هدايته و إعجازه في أقوال المفسرين، مكتبة الكليات الأزهرية، دط، 1386هـ/1966م.
* **عمر، احمد مختار:** دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب،القاهرة، دط، 1418هـ/1997م.
* **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد**: إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1417هـ/1996م.
* **الغزالي، محمد**: نظرات في القرآن، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1986م.
* **الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب**: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م.
* **قدور، احمد محمد**: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط2، 1994م.

* **القطان، مناع**: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط35، 1418هـ/1998م.
* **قطب، سيد**: التصوير الفني في القرآن، دار الـ شرق، مصر، ط18، 1427هـ/2006م.
* **قطب، سيد**: في ظلال القرآن، دار الشروق، لبنان، ط13، 1407هـ/1987م.
* **قطب، سيد**: مشاهد القيامة في القرآن،دار الشروق، دتا.
* **قطب، سيد**: النقد الأدبي-أصوله و مناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط6، 1410هـ-1990م.
* **قطب، محمد**: دراسات قرآنية، دار الشروق، القاهرة-بيروت، ط2، 1400هـ/1980م.
* **قمحاوي، محمد اطادق**: شبهات مزعومة حول القرآن و ردها، دار الأنوار، ط1، 1978م.
* **المبارك، محمد**: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، لبنان، دط، 1426هـ/2005م.
* **مبروك، مراد عبد الرحمن**: من الصوت إلى النص (نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري)، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2002م.
* **مخلوف، عبد الرؤوف**: الباقلاني و كتابه إعجاز القرآن (دراسة تحليلية نقدية)، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، دط؛ 1978م.
* **مرتاض، عبد الملك. نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية)، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2003م.**
* **المسعدي، محمود**: الإيقاع في السجع العربي- محاولة تحليل و تجديد، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1996م.
* **ممدوح، عبد الرحمن**: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر. د ار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.
* **النبوي، عبد الواحد شعلان**: الحياة الأدبية في عهد النبوة و الخلافة، دار قباء، القاهرة، 1998م.
* **نجلة، محمود احمد**: لغة القرآن في جزء عم، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، دط، 1981م.
* **هنداوي، عبد الحميد**: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم. د ار الثقافة للنشر. ط1؛ 2002.
* **وهبة، مجدي و المهندس، كامل**: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

* **ياسوف، محمد**: جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز و التفسير، دار المكتبي، دمشق- سورية، ط1، 1415هـ/1994م.
* **يعقوب، إميل بديع**: المعجم المفصل في علم العروض و القافية و فنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1411هـ/1991م.
* **يعقوب، إميل و بركة، بسام و شيخاني، مي**: قاموس اصطلاحات اللغوية و الأدبية، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1987م.
* **يونس، عيد سعد**: التصوير الجمالي في القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1427هـ/2005م.

الدوريات:

* **مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية**، تصدرها كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية، السعودية، العدد: 04، ديسمبر 1985م،
* **مجلة الأصالة**، تصدرها وزارة الشؤون الدينية، العدد: 88/87 ، السنة 09، 1401هـ/1980م.
* **مجلة آفاق عربية**، العدد: 12، 1992م.
* **مجلة التراث العربي** ، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد: 98، السنة الخامسة و العشرون: حزيران 2005م/جمادى الأولى 1426هـ.
* **مجلة العلوم الإنسانية**، تصدرها جامعة قسنطينة،العدد: 14، ديسمبر 2000م.
* **مجلة كلية اللغة العربية**، العدد: 10، 1410هـ/1990م.

المواقع الالكترونية:

* www.Awu-dam.org

* www.islamic-sufisme.com
* www.hodaonline.com
* www.balagh.com

فهـرس المواضيــع

قبـس.....
شـكر و عـرفان.....
إهـداء.....
مقـدمة: .....
الفصل الأول: التأثير النفسي لإيقاع القرآن المكي..... **01**
المبحث الأول: الإعجاز الأدبي للقرآن الكريم **02**
ميلاد المعجزة القرآنية..... **02**
إعجاز النظم في القرآن الكريم: **09**
الخاصية الأولى: الدلالة العميقة و الصياغة المحكمة..... **10**
الخاصية الثانية: التآلف الصوتي..... **11**
الخاصية الثالثة: الجودة و الإحكام..... **12**
الخاصية الرابعة: تصوّيف الخطاب..... **13**
الخاصية الخامسة: روعة التكرار..... **13**
خصائص القرآن الإيقاعية..... **15**
المبحث الثاني: المكي أسلوبه و مواضيعه..... **18**
تعريف القرآن المكي..... **18**
الخصائص الأسلوبية للقرآن المكي..... **20**
موضوعات القرآن المكي: **22**
- تقرير أمر العقيدة **24**
- عرض قصص السابقين **26**

- مخاطبة الرسول و العصبة المؤمنة 29

المبحث الثالث: الإيقاع تعريفه وماهيته 31
الإيقاع في معناه العام 32
الإيقاع في الأدب 34
مصطلحات مشاكلة للإيقاع: 38
- الموسيقى 39
- الجرس 41
- النغم 43
- الصوت 43
المبحث الرابع: الإعجاز النفسي التأثيري للقرآن 45
تعريف الإعجاز التأثيري للقرآن 45
مظاهر التأثير النفسي 50
الإيقاع و الإعجاز النفسي 52
الفصل الثاني: مظاهر التنوع الإيقاعي في المتن القرآني 57
المبحث الأول: المظهر البسيط للإيقاع القرآني 59
أصوات الحروف في اللغة العربية: 59
- الصوامت 60
- الصوائت 63
تآلف الأصوات 64
تكرار الصوت المفرد 69
إسهام الحركات في بلورة الإيقاع 71
المبحث الثاني: المقاطع الصوتية في الإيقاعية القرآنية 78
تعريف المقطع و أنواعه 79

الوظيفة الإيقاعية للمقاطع 83
استخدام المقاطع في الإيقاع القرآني..... 85

المبحث الثالث: توازن الجمل القرآنية 91
تعريف التوازن..... 91
القيمة الفنية للتوازن..... 96
التوازن في الإيقاعية القرآنية..... 99
المبحث الرابع:الفاصلة القرآنية..... 102
تعريف الفاصلة..... 102
الوظيفة الإيقاعية للفاصلة..... 105
رعاية الفاصلة في الإيقاع القرآني 109
الفواصل و تنوع الإيقاع..... 113
الفصل الثالث: الوظيفة المعنوية للأساليب الإيقاعية 118
المبحث الأول: ثنائية اللفظ و المعنى 119
تناسب الألفاظ و تناسب المعاني..... 119
الإيقاع و علاقته بالمعنى..... 124
المبحث الثاني: الأساليب الإيقاعية في جانبها المعنوي 130
تآلف الحروف و إسهامها في بلورة المعاني 130
تناسب نوع المقاطع مع المعاني 135
الفاصلة و المعنى..... 137
المبحث الثالث: الاستعمالات الإيقاعية في معاني النصوص القرآنية..... 142
الإيحاءات الإيقاعية للفظة القرآنية..... 142
موافقة المقاطع إيقاعيا 147

للمعاني.....
إيقاعية سورة القلم بين تكرار الحرف و القافية..... **149**
- معاني السورة من خلال وقفاتها..... **149**
- نظم سورة القلم و إيقاعها..... **153**

خـاتمة البحث..... **160**
قائمة المصادر و المراجع..... **164**
فهرس الآيات و السور..... **175**
فهرس المواضيع..... **185**

و الحمد لله أولاً و آخراً